مذكرات رجل في المنفى

خولة بوشيبة

اهداء الى أولئك التائهين في خضم الغربة، الى أولئك المتوحدين داخل غلاف مزيف من المجتمع، الى اللذين لم تطأ أقدامهم جزيرة الأحلام.. الى تلك الأرواح أكتب.

هذا الكون كله يضيق بي، يضيق بنفسي، يخنقني هذا اللاشيئ، هذا اللاشيئ الذي أحسه، هذا اللاشيئ الذي أعيشه، هذا اللاشيئ الذي هو تعريفي.. هويتي..

من المؤسف والمقشعر أل تحس بأدنى ألم و أنت تزخرف جسمك. صدقا لكأنك تحت وقع المخدر؟ ثم تبدأ تلك الجراح بحرقة لاذعة، حرقة ليست هي التي ستجعلك تندم على الذي فعلته تأكدك من ضعفك هو الدي سيوهن عزيمتك أكثر.

كن رجلا، كن رجلا لمرة...

شوارع هذه المدينة تعج بالفوضى ..

ضجيج مستمر ما ينفك يعلو.. و يعلو..

أناس بملامح ممحية..

مجرد الات تنتضر موعد انطفائها الوقتي ليلا الى حين موعد انطفاء أبدي ستخمد فيه كل حركة..

ملحمة إغريقية بكماء تدور في رحاها كل الشواغل القاسية في هذا البلد.

أربع سنوات فعلت الفعل الكثير. تغيرت فيها وجوه و اسودت صحائفنا، و امتد المجال الشاسع للزمن ليلحم الماضي و المستقبل.

و الان، هذه الايام الجوفاء تعود لتذكرنا بأن ما وقع قد حصل فعلا و أن لا رابح في لعبة الأقدار التي تحملنا حيث تشاء باختيارنا.

أربع سنوات عدت فيها لهذا المنفى حيث يحتضنني يتمي، و لألتقي بأشباح طالما سكنتني.

كل ما فيّ يبعثني على التساؤل : ماذا بعد اللانهاية؟ ماذا وراء الأفق الجميل المريص بأنظارنا؟ ماذا عند اللامكان ؟ الفراغ، الخواء؟

جعلت أسير في هذه الطرقات الوعرة بعقبات الذاكرة. سافر العقل أمشي حيث وجهتي الصعبة..

سامحيني يا غالية !

جعلت أبكي على القبر الهادئ مقبلا التراب الذي لا يزال رطبا برائحة المسك و العنبر و الزعتر الجبلي. للقبور رائحة قوية تخلط فيها كل حواس الذاكرة ! أمسك بيديّ حفنة التراب الندية كأنها اخر شيئ يربطني بهذا الواقع. كان المكان خاليا أو هكذا بدى لي. تجمدت

حواسّي كلها. فموت بعض الاحبة موجع لحد أن التنازلات الأخرى تقف لتخاطبك أنها لا تستحق مقدار الحزن المنفق عليهم !

شعرت بأعضائي كلها تتاكل و برعشة برد سرت من دقة عنيفة في صدري الى منتصف دماغي.

ماا أفعل في هذا الزمان المطلق؟

هذا الفضاء لا ينفك يضيف و نفسي يزذرذ الهواء المتبقي بصعوبة..

ال 31/دسيمبر/2012

أي 14 يوما متبقية على الذكرى الأولى للثورة التونسية التي قامت باسم المستضعفيت أو "الزوالي" أو بالحرى مجرد سبب جديد لاحياء ذكرى وجع أهالي الشهداء اللذين لا يزالون في انتظار حصاد نتاجها لليوم.

ترشفت تبغي مصخيا السمع لتداء البحر العنيف، مستمتعا بالسكينة التي تبعثها فيّ حركة الأمواج الشتوية المتمردة. مد و جزر، جزر و مد.. كانت هذه الحركات تأجني داخليا اذ كانت فيها لمحة صفاء لا يكدرعا اكتظاظ أفكارنا التي تلين هي الاخرى بمجرد التواجد على شواطئ البحر. أحب رائحته في الشتاء ، ز أتعشقه أكثر حين يهيج في يوم صيفي حار كأنه يعلن ثورته الخاصة ، بل و يدعو لها !

للبحر قدرة هائلة على تصفية أفكارنا. حتى علماء النفس يقرون بأن اللون الأزرق يجعل النفس هادئة. هو لون الحلم ما بين الوهم و اليقضة. لون صادح بشتى ألوان الهدوء و الصفاء الداخليين.

***

الواحدة بعد منتصف الليل..

تذكرت قول جبران خليل جبران "البحر لا ينام، و في يقضة البحر تعزية لروح لا تنام".

كم شهدت هذه السواحل بيقضتها الدائمة من أحداث مطربة على مر التاريخ؟ من رساء سفن عليسة عليها في القرون الاولى لبداية نشأة الحضارة القرطاجية الى هذه السياحية التي تقام هنا و التي بدأت تتراجع بسبب عدم الاستقرار السياسي.

كم شهد هذا البحر الكتوم من شواهد؟ كم من روح حادثته جميع أسرارها لتغرق أبديا في طهارة تلك المياه؟ أتراه هذا البحر الداعي للثورة قد شهد اثارها؟ الثورة البلشيفية، الثورة المصرية... كلها ثورات بدأت باسم الخبز و انتهت بالدعوة الى الاطاحة بالنظام السياسي المؤقت.

صحيح أن للحاكم دورا في مدى صلاح البلاد لكن لا ينبغي القاء اللوم كليا عليه. نحن قوم نحترم لص النهار في زيه الفخم و نبغض سارق الليل لفساد هيأته. نحن نقيّم شخصا لا نعرفه بحسب اراء الاخرين حوله. نحن نخجل احيانا من اللقمة الحلال نخلط بين العمل الرديء و العمل المحترم...

لكن متى علينا ان نفهم ان الفقر الحقيقي هو فقر القلوب، فقر العقول، فقر الأخلاق.. أن تكون معدوم النقودذلك يعني فقط احتياجك لشيئ يمكن تحصيله بالكثير من المجهود و العمل أما أن تفتقر الى ما هو أسمى من ذلك، شيئ قد لا تحققه بقدر الزيادة في ساعات العمل.

كالصحة و راحة البال...

ينبغي أن يظل اللسان يردد "الحمد لله الحمد لله" حتى في أصعب الظروف. لكن عن هذا الوقت من السنة، لم ينتظر الناس رأس العم لانطلاقة جديدة؟ لا نقطة محددة لبداية الزمن أو نهايته. ذاك الشعاع الممتد من نهر النيل شرق الى عين لندن وصولا الى معابد الهند القديمة.

نظرت الى الساعة المعقودة على معصمي : قارب الوقت الثانية و النصف. أنا هكذا كعادتي الجديدة لا يساورني النوم الا بعد جهد جهيد..

***

فتحت باب شقتي المستأجرة مع ثلاثة اخرين من رفاقي. ترااميت على الفراش الحار بثقل المشروب الدي ساهرته خارجا. الثالثة و الربع صباحا . رتابة قاتلة. هذا الزمن الصدئ الذي يتوشح الليل و الفراغ لاغتيال ضيائك..

أخذت نفسا عميقا محاولا النوم. نومي غريب اذ لا يهم الظرف الدي أنا فيه، ما أن أتوسد شاعريتي حتى أستسلم لمخدر الحياة الوؤقت. لكن هذه الليلة كانت مختلفة اذ ظللت ساهراطوال الليل. حتى الصياح المعتاد سماعه في هذا الحي الشعبي خمد. ربما ليلة البرد هذه هي التي دعتهم للهدوء، هدوء و أرق مقلقين يبعثان على التساؤل: هل المستقبل فعلا مشرق أمامي؟ هل يمكنني اعتبار نفسي انسانا ناجعا؟ هل حياتنا عبثية لهذه الدرجة؟

ظللت أتمعن في الموت و الحياة و فائدة عيش الانسان ... و حتى أشياء أخرى لم يخطر ببالي قط أني سأنغمس فيها لهذه الدرجة. حتى ما بدى لي تافها في السابق صار مبهما مشوقا الان يستحق البحث.

هل مصيري أن أعمل فأتزوج فأرزق بأطفال ليكبروا و يعملوا و يتزوجوا مثلي؟ ما سلسلة الحياة الدائرية تلك؟ لا أريد أن اكل و أشرب و ألهو ليعيد أبنائي نفس الدورة من بعدي. أريد أن أنقش بأصابع ذهبية أثرا لوجودي في هذا الكوكب. أريد أن أتعالى عن غرائزيّتي و أسّس حياة مفعمة تمتد حتى بعد اضمحلالي.

و ماذا في عيشي يستحق المناضلة لأجله؟

أسئلة لا جواب لها. فلا أحد لاقانا بعدما مات ليخبرنا ماذا يحدث للانسان حينها. لا أحد اطلع على الغيب لينبعا من أخطاء كارثية قد تدوي بنا. لا أحد يضمن لنا أن الواقع هو الحقيقية و ليس زيفا متماهيا معها.

"حياتك فاترة" قالت لي لين مرة معاتبة اياي بألطف الطرق جرحا.
"تسهر ليلا على الحاسوب كي تقضي نهارك نائما في شبه غيبوبة، غفوة عن العالم. لا زال كلمات الخيرة تُشرّح كبريائي. تصريحك بأني انسان فاشل، ضعيف، مستسلم.. كيف أنك أدرت لي ظهرك في اللاك الدي جمعنا اخرة مرة و الذي انفقت معضم مدخراتي على ذاك اللقاء. هكدا، بكل بساطة دون تكبد حتى عناء الاتفات خلفك. ليس العيب في التخلي عن شخص طالما امن ببقائك حدوه، بل العيب في الطريقة التي ينتشل نفسه منك، طريقة مبتذلة تشعرك بتفاهتك.

أتخاف أيضا هده الأجيال الثقيلة التي تتعاقب و تتوالى عليك كوقع الناس في حياتك؟ هذه المتاهات التي لا تنفك تجرك نحو المجهول؟ هدا الكون العجيب المبهم الذي يحملنا بكل أنواعنا و غرائبنا.؟

***

كانت هذه الليلة البيضاء قاسية عليّ كوقع الحمض على الجلد. استيقضت فيها كل تفاصيلي الدفينة.

و أمي.. أشتاق لصوتها بشدة حتى و هي في عتابها المعتاد. حين توقضني بعباراتها الروتينية التي حفظتها عن ضهر قلب "الى متي هذا الخمول و أنت 'بطال' ؟ " ثم تبدأ المقارنة بيني و بين رفاقي. فلان مهندس، فلان شأنه يرفع الراس..

كرهت مقارنتها تلك و ها أنا اليوم ما أنفط أقارن نفسي بدوري.

كيف يكون لشاب في السابعة و العشرين الشعور بالاحباط لذه الدرجة؟ كأن شاخ عمري مائة و سبعا و عشرين خرفا، و علت التجاعيد فكري المنهك بطعنات القدر. فمفهومنا للزمن يتغير حسب حالتنا المزاجية.

نعم البحر خطير لكني سأمضي.

رغبة بالانتحار راودتني أو ربما دفعة زائدة من الرغبة في عيش حياتي الى اخرها.؟

***

قمت من مضجعي و أخرجت حقيبة سفري لأعد ما يلزم. تلمست النقد بلهفة و جوع و عددتها للمرة الرابعة. عددتها عدا كان يحرق أصابع و أكف اليد التي افتكتها من مجرذ شيخ عادي خرج من البنك فرحا قنوعا بمبلغ شهره التقاعدي. و عمليات تحيّل أخرى لازال صورها تطاردني.

أشحت بنظري بعيدا في شبه الغرفة المسيجة عليّ بحيطانها الضيّقة. أوراق جرائد مبعثرة، علب سجائر رخيصة، عنكبوت نائم بكل هدوء على وقع هده الفوضى.. قوارير الوايت تملئ الأرضية المغبرة.. و رغم صعوبة ميزانيتي الا أني لم أكن لأترشف عدى الصهباء الفاخرة، فللبذخ مواطن يستبيح بها حرمة حميميّاتنا.

غدا يتغير كل شيئ. حياة جديدة بانتظاري.

1/جانفي/2013

على ضفة شواطئ الانكسار،

مجددا، هدا الصمت الرهيب !

أحتاج الى نوبة هدوء تقسم هذه الضوضاء داخلي الى ملايين الشضايا، لا هذا الهدوء القاتل المحيل على الفناء. ذاك الصمت الرهيب الذي يقتلك برتابته و برودته. أنا لا أبحث عنه، بل أبحث عما يجبر طقطقة الاصوات و الصياح داخلي على الخمود. أبحث عن صمت أنيق، رصين في مجيئه، شريف في بقائه، نزيه كريم في رحيله عنا. أبحث عن فرح ينفض غبار الماضي المتراكم في ذاكرتي كمحطة نفايات عالمية، أن أتلبس طفولتي من جديد و أعايش الافراح الضبابية من حولي.

لكن السؤال الأهم يبقى: كيف تطفئ هذه الاصوات الحادة و هي تعشعش في رأسك بأكمله؟ كيف تطفئ شيئا هو فيك !

25%نسبة العاطلين عن العمل . تلك احصائيات العام 2012

عشرات يتمنون الاستمتاع براتب شهري

عشرات يرغبون في أن يتوقفو عن مدّ أيديهم لأمهاتهم و ابائهم طابا لمصروفهم

عشرات يرغبون في أن يشعروا بفاعليتهم في هذا المجتمع.

ما احساس الفرد حينيجد نفسه في بلد لا يضمن له حتى حق العيش بكرامة؟

تمتمت في قهر قبل أن أندس داخل مجموعة الحارقين الكبيرة.

كانت أجسادهم ملونة بنوع من التفاؤل المر و نظرة استشرافية في ان. تفوح من أعينهم ألوان من الذكريات التي لم يصعب علي فك شفرتها، فمن يمرون بنفس ظروك لهم قدرة عجيبة على قراءة تفاصيلك. قلوبنا كالرسائل المغلقة، لا أحد يعلم ما بها و لا يحق لأي كان فتحها.

تثاقلت في الصعود الى ذلك القويرب الذي يشغل في المعقول مائة راكب على وجه التقديرلكن عدد انازحين كان يتجاوز الضعف و نيفا

! لم يكن تثاقلي بسبب شلل قدمي اليسرى بل لفشل معهود طالما

سرى في جسدي سري سم الافعى في جسم الضحية. حالة غريبة من اللاشعور، من الهذيان النفسي.

لا أطلب الكثير، سوى فرح مرتسم على ملامح أمي و يقيني من رضاها عني.

كانت تلك اخر فكرة راودتني قبل أن أنحشر داخل هذا الكم الهائل من البشر. و انطلقنا.

تزداد هذه الوحدة اتساعا كلما زدنا تعمقا داخل هذا البحر المضطرب الثلجي الملمس. لم أتوقف عن الشرود لساعات طوال، لا يزال وجه أمي مرافقي أينما خطوت. كنت كلما حذوت حدوها وجدتها عاقدة

رأسها بقطعة قماش و بضعة قوارص شاكية من صداع لا يبرحها. قدماها دوما منتفختان و تشكو من أوجاع في مفاصلها. كذلك عمتي منجية و خالتي زينب. أكل الأمهات هكذا؟

أتوجع حين أستشعر حزنها خاصة مع يقسنس أني أنا السبب. كوني حملا لشهادات أظل محتفظا بها كزينة، كونها تعبت في حمي الطابونة لتوفير مصروف دراستي في جامعة الحقوق بسوسة في الوقت الذي كنت أتغيب فيه عن الدروس و أنفق ما لدي في الملذات الزائلة..

كانت تحبني أكثر من اخوتي الخمسة. لكن ألا يقولون أن للأم حاسة سادسة تجاه أولادها؟ كيف لم تنتبه لي؟ لكل تلك العلامات؟ علامات تدل على أني لست على سجيّتي. ربما كوننا ثلاث عائلات كبيرة مجتمعة تحت سقف دار تقليدية في قرية الرديّف. ثلاث عائلات لم تواسي شعوري بالانتفاء بل عزّزت شعوري بالتماهي بينهم.

هي لم تلحظ شيئا، بينما كنت أراقب و ألحظ كل شيئ فيها، أسباب خذلاتها، مصادر فرحتها، ألوان أحلامها الصامتة...

هي، كيف لم تنتبه لكل ذلك؟ شرودي المستمر، انغلاقي على نفسي، كيف كنت أطلب منها أن تصرف رفيقي عني أو بالأحرى رفيقي الوحيدين مقابل صداقتي الجديدة بذاك المسمى سامي.. كيف أني احتضنت يدها اخر مرة بلوعة الشوق و لهفة اللقاء و حرقة الحنين. أنا في العادة أقبل يدها بخفة و فتور شديدين و في المناسبات الرسمية العائلية فقط. كيف لم تلحظ ذاك التغير المفاجئ في تصرفاتي و عاداتي أم أنت هكذا دائما؟

فجأة شعرت بهزة عنيفة في المركب و اذا ب'الربان' يقف عاليا و يطل علينا من موقعه حيث يراه الكل و يصرخ بأعلى صوته : " حسنا ، الكتلة هنا تتجاوز المعقول حسابا لظط الماء في درجة المياه الحالية، ... و لأسباب فيزيائية لن تفهموها يجب التخلص من الحمولة الزائدة... و بالحمولة الزائدة.. أقصد أشخاصا منكم"

لم يتحرك أو يتكلم أحد لكن فتى يبدو في الثانية عشرة من عمره انتتصب من مكانه بعنف و ألقى نفسه بمحض ارادته في عمق المياه التي بدت وديعة مغرية لحظتها. بعدها دبّ فزع رهيب دام حوالي الساعة و النصف هدأت فيها الحركة بعدها الى سيرتها الاولى.

خمس و سبعون دقسقة تجول فيها قابض الأرواح بيننا، افتك منا البعض و ترك اخرين لأجل مسمى، من بينهم أنا، حمزة بن منصور الأسعد التليلي.

أييزورنا الموت هكذا بكل سهولة؟ أحياتنا رخيصة لهذه الدرجة؟ ماذا تعني النفس البشرية أمام من لا يؤمن سوى بالمال اماما و بالحياة الدنا مستقرا و قرارا؟ أتساءل أحيانا عن مدى رخص النفوس البشرية لدى النفوس الأخرى من البشر. لكن الانتحار؟ هذا قمة الضعف. تعني أن الانسان لم يعد يقدر على الاستمرار بينما يعلم أن الله لا يكلف نفسا الا وسعها. الانتحار مرادف الفشل، الاستسلام، الانهزام. أتذكر مرة أني قرأت منشورا في أحد المواقع يقول أليس من الأنانية اجبار شخص على عيش حياة لا يريدها و نعته في نفس الوقت بالانانية لتخليه عن أحبته و أقرباءه؟ كان تجابهني أفكار الانتحار أحيانا حين أطيل الخلوة بنفي و كنت أطرد هذه الهواجس عني بصعوبة. فكوني وحيدا مع أفكاري الخاصة مخيف الى حد ما. لكن حين يصل شخص ما على القيام بذلك و أمام عينك ندرك حينها

أننا كبرنا. كبرنا و علممنا أن الحياة ليست لعبا و حلوى و قصص ما قبل النوم. كبرنا و تجرّعنا مرارة الخيبات المتتالية التي تقتل تدريجيا ما بقي لنا من أمل. كبرنا و ما عادت أبسط الأشياء تضحكنا... نحن فقط كبرنا..

من موعد انطلاقي الى حين وصولي عشت أكره أحداث منذ سبع و عشرين عاما أو ربما لم تكن هي الأسوء لكني متفاءل بأن القدر يحمل في طياته أياما زاهية.

16 /ديسمبر/2012 ، يوم الأعصاب المتثلجة

أتجول في هذه الشوارع الغريبة عني مدهوشا. الطقس بارد يلفح المفاصل و الشمس التي اعتدت التذمر من حرها غاب عني دفؤها في هدا الشهر الشتوي الجديد عني. قطع ثلج ممشوقة كالخناجر، شبابيك و أبواب موصدة ينعم أهاليها بتمام الدفئ، شوارع تكاد تكون فارغة رغم حركة طفيفة للسيارات و المارة المتعجلين. سكان المدن دوما متعجلون. ذاك ما سميه عصر السرعة . لا يتذوقون اللحظة كما يجب باستعجالهم المستمر.

اتجهت نحو أقرب هاتف عمومي لأتصل بسامي. كنت قي اتفقت معه منذ أكثر من شهر على أن يرحّلني الى فرنسا عن طريق ايطاليا أولا لكن لا أثر له. اتصلت على رقميه المحليين، كلاهما مغلق.

السادسة مساءا ، بدأت الشوارع الشبه ملانة بالتفرّغ و شيئا فشيئا بدأ يساورني القلق حول هذا الموعد العربي . هي تسمية لا تخلو سخرية لكنها واقع. فالوقت مفهوم مقدس يجب احترامه.

لا أعلم ان كان هذا طقسا عاديا أم أنّ هذا الصقيع متأتّ من أعماقي. لا أضن أني في وضع يحسد عليه. أنا الان في بلد أجنبي، لا أعرف أحدا و لا أتكلم حتى لغتهم. ما الذي دفعني الى هذا الضرب من

الجنون؟ ربما ذبول كا الأشياء البهيجة في داخلي و التي طالمل امنت بها. أن يجف حلقك و أنت تدعو لشيئ جميل أن ينتشلك من هذا الفراغ المتوحش. أتعلم احساس المنفى؟ هطذا يحس المرء حين يغتال القدر أحلامه الأقل براءة. انها تلك الأهداف الغير محققة و التي تظل عالقة في منتصف الحنجرة، كالشوكة قرابة نهاية الطريق، كالطفل التائه وسط جموع الشّغب، كقطعة بلّوريّة فنية استغرقت صاحبها ساعات لاتحافها كي تدفعها نفخة هواء خبيثة فتحبطها بأسوار من العدم. لا.. لا وجود للعدم. فنحن لا نختف فعلا بل يظل أثرنا عالقا في الدنيا لكن أيّ أثر؟

4/جانفي/2013

ما حصل معي كان معجزة. بعد التهيام في ممرات لامبادوزا لم أجد بدّا من العودة حيث رسونا. وجدني مهدي الذي شاركني سفرتي. أخذني من ذراعي و ربت على كتفي قائلا "نفهم حلك صحبي. التونسي للتونسي رحمة". و مررنا في مصنع يبدو قديما لكنه مغرورق بالناس التي كانت أجسادا فقط مع بضع من الروح فيهم. و تبادر الى ذهني سؤال:"هل نحن حقا أحياء أم فقط على قيد الحياة؟"

كنت أعرج على عكازي بينما كان هو يقود كرسيه المتحرك في حركات لا تخلو من تعب. صراخ أطفال، نساء تثرثر، عشرة رجال مجتمعين للعب البوكر... ذكرني هذا بفترة من حياتي. حوالي منتصف شهر مارس أي قبل تسعة أشهر. اليوم الذي أغلق فيه معمل الملابس الذي كنت أعمل بوابا فيه. كم حصلت اضرابات يومها ز

كم تنهد العمال من مرة في الدقيقة الواحدة! و اليوم أدرك أن لا فرق

بيننا و بين الات المصنع التي ملأها الصدأ و استغنى عنها الجميع حال استبدالها بما هو أكثر نجاعة. و هل لنل نحن البشر أن نبدَّل و نغيَّر تماما كما يلقي رجل ثري أغراضه التي طالما أمتعته؟ كما يغير الثعبان جلده باخر ينسيه في القديم الذي التصق به لفترة من الزمن؟؟ أنكون نحن أقل شأنا من هذه التماثيل المنتصبة وسط العاصمة و المستحوذة على الاهتمام و الانبهار أكثر مما نذنب نحن في اليوم الواحد؟ المؤسف بحق هو مصير أولئك البسطاء و معضلة تحصيلهم لعمل جديد. عمل لن تفتك منهم الالة مكانه. و لا يبدو هؤلاء الخلساء هنا، الان، في هذا المكان المسجور مختلفين عنهم. و ليس أكثر عطفا على القلوب من مرءى شخص يتعثر في نفس

الموقف الذي سبق و أن مررت به. هناك البعض اللذين يتلذذون فحينها يشعرون أنهم ليسوا لوحدهم و ذاك بمعنى سلبي و تلك قسوة.

وصلنا أخيرا في نهاية المطاف الى رجل أول ما يلفت النظر ايه هو بدانه المفرطة و الازرار الذهبية المطرزة على قميصه. حيّاه مهدي بكثير من التملق و التهليل سريعا.. يم يُعرفني عليه حتى بل انحاز سريعا وراءه يترجم لي ما يقدر عليه من عبارات.

تفحّص فيّ الرجل مليا بنظرات بدت حادة حتى من خلف نظاراته الداكنة قبل أن يربت على كتفي في فجئية و عنف خطيرين اهتز لهما كامل جسمي :

-شاب في مقتبل العمر؟ سبع و عشرون ربيعا زاهيا؟ محام؟

perfecto ! perfecto! ستبدأ العمل غدا.

لم أصدق نفسي. بقيت مدهوشا. اذ كيف لسنوات طويلة من البطالة أن تتبدد في غضون ساعات و بكل هذه السهولة ! سنوات البطالة الخبيثة التي نهشت جسدي و روحي و تركتني أغوص في دوامة الاكتئاب.

-طبعا، فقد رشيته البارحة كما فعلت من أول لقاء لنا منذ خمس عشرة سنة. ما بك لا تستغرب .. هكذا تسير الدنيا..

-اسف

ثم نظر اليّ نظرة تبعث على انبعاث الثقة و دعاني لشرب كأس شاي معه لتبديل الجو.

اصطحبني معه لمقهى شعبي يدعى "لا فلورا" LA FLORA .
جلست قبالتي امرأة ثلاثينية العمر صبغت شعرها بالاشقر الزائف بحيث تظل جذور شعرها سوداء و مساحيق التجميل الكثيفة على وحهها لم تخف التجاعيد التي بدأت ترتسم عليها و لا أخفت حنى ازرقاق ما تحت عينيها. ثم على اليمين شاب يبدو في العشرين، هزيل البنية. كان يظحك باستمرار طوال الجلسة و يلقي بالنكات كأن لا يهمه شيئ و لا مشاغل له. أما على يساري وضع مهدي كرسيه المتحرك و بدأ يسامرنا بطلاقة صادقة.

كان مسار الجديث عاديا في البداية: الطقس البارد، غلاء الاسعار، سخرية من عاشقين جلسا في الطاولة المجاورة.. لكن الكلام انحرف فيما بعد ليأخذ منحنا جديّا اذ جعل كل منهم يروي ما جاء به الى ايطاليا. استغربت حين تكلمت فاطمة بكل أرحية عن انجابها لولد "دون أب" و هروبها هنا خوفا من أهلها و الفضيحة، طمعا في حياة جديدة أفضل ستهبها لها هذه الغربة. أنكون من كثرة الاعتياد على المشاكل لا نحس بها؟ أم أن للزمن فعلا مقدرة شفائية عجيبة؟

أحمد بدوره غير متزوج لكن محكوم عليه بسبع سنوات بتهمة ترويج المخدرات. صاروا حتى يتحدثون عن مشاكل أصحابهم. لاحضت أن معضمهم من متوسطي الحال أو من الطبقة الفقيرة، أرادوا السفر طلبا لتحسين مستوى عيشهم. منهم من هاجر سرّا ممنيا النفس بغد أفل و الاخرون غادروا ديارهم تجنبا لمشاكل عائلية معقدة و جو متكدر. فجأة،التفتت اليّ فاطمة و فتحت فاها مسفرة عن اسنان صفراء من مجالسة السجائر:

-و أنت؟ ما الذي جاء بك الى هنا؟

فوجئت بجميع الأنظار تتوجه نحوي و بهمس:

-نعم.. فعلا.. انت تقريبا صامت منذ قدومك.. نود ساع قصتك.

و لا أخفي عليكم دهشتي لكن لمَ؟ ألغرابة هذا السؤال؟ أم كوني لم أسأله على نفسي سابقا و لو بصورة غير مبتشرة هو ما يكسبه هذه الغرابة؟ و ما عساي أجيب؟ أهو حب المغامرة و الاطلاع؟ لم أعهد في ذاتي سابقا أي نوع من الحماس أو ربما كان موجودا و لم أتفطن له.. ما الذي جاء بي الى شبه انتحار و نوع من الموت؟ ما الذي دفعني الى القاء نفسي في خضم تجربة جديدية تماما؟ و أردت فعلا أن أعرف لم، فتبادرت الى ذهني صورة.. صورتان.. الواحدة تلو الاخرى. حتى في يضع ثوان تتالت علي أحداث عمر مضى. أمي ، اخوتي... أشتاق لهم. منصور، زينب.. حين كنا نجتمع في دارنا التقليدية في حميمية بالغة، حميمية لم تسرقها أجهزة الاتصال الحديثة التي تفرق افراد المجموعة الواحدة الموجودين في نفس الحيز المكاني. كنا نتحدث و نضحك. و كانت جدتي من أبي تقوم بدور الجدة التقليدي تحكي لنا الحكايات. لم نمل منها حتى مع تكرارها لنفس القصص أكثر من مرة. لم نمل منها رغم سننا الذي توقف في حضرتها.

أشتاق لهم، لكن أقسى أنواع الاشتياق هو أن تشتاق لشخص ليس سوى نفسك.. نفسك السعيدة البريئة. أن تتأمل انعكاس روحك في المراة فلا يعجبك ما تراه لأنه في حقيقة الأمر ذاك ليس أنت.. يقول أدونيس : "أقسى السجون و أمرها تلك التي لا جدران لها" أخشى الضياع. أن أستمر في العيش وحيدا. هؤلاء الجالسون قبالتي الان قريبون بالاجساد و الارواح. أحسدهم رغم بساطتهم.

-هاااااااي

استفقت من غفوتي.

-وين سرحت؟ ههههه لا مجال للاحلام هنا. فقط العمل و العمل.. اه.. و المزيد من العمل.

و جذبت بتنهدة سيجارة أخرى أشعلتها في رعشة غضب طفيفة.

بينمما التفت اليها الشاب العشريني و أخبرها في لهجة لا تخلو من عتاب أن تتركني و شأني لعله أمر خاص.

-أنا.. أنا.. على الاطلاق. فقط ، تعلم، كي أحسن عيشي.

أأخبرهم أني اتفقت مع رجل لا أعرف عنه الكثير و بل و عرفته عن طريق أحد المواقع، أن يسافر بي الى فرنسا عن طريق ايطاليا أولا و أنه بعد فترة لم يظهر له أثر؟ كلّا. و اكتفيت بالصمت.

بعد نهاية المسامرة جذبني مهجي اليه و قال في عطف :

-أنت شخص طيب. لن أنسى ابدا معروفك الذي قدمته لي حين كنت جليسي في القرب و قاسمت معي طعامك المتبقي. صرنا رفقاء الان. سأساعدك في تدبير أمورك مع باول و لكن غدا. موافق؟

و اختصرت كل كلمات الشكر و البهجة التي ساورتني في عبارة "حسنا جيد". كم كنت بحاجة الى المساعدة و لم يسعفني لساني لطلبها. لكن أحيانا كثيرة يكون الاعتراف بالضعف قوة في حد ذاته. كلنا نحمل جانبا هشا لا يتجزأ أبدا. نقطة ضعف تظل ملتصقة بكياننا لا تبرحنا و لا نبرحها. الجاهل فقط من يتظاهر بكمال نفسه.

اصطحبني مهدي الى عمارة قديمة تبدو من قرن أو حتى أكثر. قدّم لي مفتاحا و اعتذر لعدم تمكنه من الصعود معي نظرا لارهاق قدميه.. فتحت الباب بعد محاولات خرقاء لوضع المفتاح بالطريقة الصحيحية و دخلت بشيئ من التوتر و الحماس. كانت أركان الغرفة مليئة بالندى ناهيك عن ذاك العنكبوت الذي ظل متجولا بكل أرحيةفي الركن الأيسر من جهة الباب. ولجت لأتفقد غرفة الحمّام. كانت صغيرة جدا تتسع لشخص واحد واقف بطريقة حذرة. تأملت وجهي في المراة. فجأة وجدت يدي تتلمس ذاك الخط الممشوق بزهو على جبيني0 لذاك الندب قصة خاصة لكن لم يحن وقت سردها بعد. يبدو وجهي مخيفا نوعا ما. لا أدري لم خفت من هذا الشخص الذي ينظر الي مباشرة في العينين. خلعت ربطة عنقي التي كانت تخنقني كالمشنقة. فتحت أزار قميصي. خلعت حذائي المهترئ و ارتميت بقوة على الفراش. أصدر صوت ارتمائي عليه صفيرا شديدا. ظحكت في حرقة و أغمضت عيني محاولا النوم.

اليوم مرهق أنا بقدر عدد السنوات التي أمضيتها بحثا عن نحت كياني. انعزلت في منتصف هذه الليلة على حافة البحر. أخرجت دفتري الذي ارتحل معي . تلمسته، شممته.. تحسست اثار القلم في الكلمات المكتوبة بعنف فلطالما كتبت و أنا في حالة انفعالية. و شهوتي للكتابة تزداد جموحا وسط زوبعة الأفكار التي داهمتني. أما عن أوقات الكتابة فأ عتبرها طبيبي النفسي اذ حينها فقط أتبدى في أقسى طقوسي حميميّة . ينقلب فيها مزاج أفكاري كلعبة أفعوانية تتباطئ ذلك التباطئ الموتر لتنطلق بعدها فجأة بشكل عنيف متهور و تتبدل مشاعري بسبع ألوان كقوس قزح. الا أن ألواني عبارة عن سبع درجات من نفس اللون. ذاك اللون المكتسح لجل مجالات حياتي.

"نحس في روحي تخنقت"هي عبارة دارجة جدا في لغتنا العاميّة للتعبير عن الملل لكن أن تقصدها بكل حرف فيها؟

يوم الخميس / فيفري/2013

في غرفتي المسيجة على بحيطانها الضيقة،

هذه الليلة مرهق أنا بقدرالساعات الطوال التي أمضيتها أبحث عن معنى لما أفعله، عن طعم أكسبه لأفعالي و لرائحة زكية تنتشي بها الذات.

جابهتني فكرة التعطش للكتابة كعادتي كلما انزعجت. توترت قبل امساكي للقلم لنحت أفكاري و قبل الغوص في مارب لا فائدة منها. بدأت في التمحيص في الناس اللذين أعرفهم. أولهم مهدي. و رغم أنه في نظر القانون با حتى في سجل الأخلاق يعد سارقا، الا أنه كان نعم الصديق، طيب القلب، يفكر أحيانا في الاخرين قبل نفسه لكن وسخ الدنيا علمه تلك المغالطات ليعيش. لكن ما تعريف الشخص الطيب هنا؟ فكلنا يحمل شطرا ملائكيّا و اخر أسود و قد يتغلب أحد النصفين على الاخر فيخفيه دون أن يمحيه تماما. لكن هل هناك طريق وسط؟ نصف بنصف؟ كأن يكون جيدا هذه الساعة و يخبره مزاجه بالسوء الساعة التالية؟ و أي نوع من الاشخاص أنا؟

مثل تلك الأفكار و التساؤلات صارت تراودني قبل النوم. لم أجد لذلك تفسيرا سوى امكانيةأني صرت ناصجا؟ مسؤولا؟ شخصا ذا ضمير؟

و شرعت في الكتابة. لم يكن يهمني كون أفكاري غريبة شاذة في أغلبها، متضاربة المعاني في كثير من الأحيان، طالما أن المقصد واحد: تبليغ ما لا تقدر الألسن على نطقه للأسماع الصماء حولنا، فنؤثر البكم. فكم من مقولة بُلّغت في طيات الصمت فعدم قول أي

شيئ يساوي اجابة. نعم نحن نختار أن نجيب بالصمت فبعض الأمور لا تستحق أن تنصدق عليها بشير صواع من ذبذباتنا الصوتية.

ميت أ نا بين الأموا ت المقنعيت بوجه الحياة

حيّ أنا بأوهامي

مهدوم بذكرياتي

قلّما أتساءل عن أسبابا هذياني

اذ مللت من محاولة الاجابة

لكن أظل أتساءل : هل أن العطب الحق في ذاكرتي؟

ذاكرتي التي تبخر اللحظة السعيدة لتجعل ذكراها تحسرا مرا

و اللحظة المريرة أمر بأضعاف أضعافها

***

يا ذاكرو الشوق الجريح

يا ذاكة الجنين الذي ما يزال شاهدا لشريط حياته و هو عالق في نفس المشاهد

و هو ضعيف رخو

ضعيف حتى عن اغماض أحاسيسه عن العمل

ليت هذا العطب داخلي يصيب جهازي الحسّي

ليته، ليته يحرق كل جزء فيّ قائم على انتاج المشاعر

ليته، ليته يميتني من حيث لا أدري

من حيث لا أشعر

فأنا ممزق بين أوهامي و أوهامي الاخرى الاقل زيفا

الاقل ضراوة، الاقل خنقا، الاقل شللا...

***

ما أجمل احساس الحرية المطلقة حين تكتب ما تفكر فيه بكل صدق. أن تكتب تحت وطأة الجرح، تلك أكبر معان صادقة يمكن أن نبوح بها رغم ما قد يرافقها من مبالغات. فالانسان –كما أعتقد بقوة- يكون في أشد لحظاته صدقا حين يكون في حالة انفعالية. كذب من يعتذر اليك من كلمات جارحة قالها لك في "غير وعي منه و في لحظة غضب" فهو وقتها تفوه لك بما احتوته ذاته طويلا متغاضية عن قوله. و الحزين حدّ الشجن سيلقس بدفاتر مشاعره مفتوحة أمامك في لحظة التباس اكتئابي. و رغم حاجتنا الاجتماعية للبوح، تبقى لنا حصتنا الخاصة من الاسرار . تلك التي لا نقدر بتاتا عن الافصاح بها مهما كانت حالتنا المزاجية و مهما تباعدت درجتها و مهما كان ذاك الحبيب ملتصقا بروحنا حدّ التماهي. فدوما تبقى لنا حصتنا الفردية من الأتراح الغير متقاسمة، حصتنا من جانبا الخفي من الضعف الذليل، ضعف يأبى أن يسفر عن ملامحه.

أخذت سيجارة من فوق المكتب الذي أجلس فيه، تأملتها قليلا ثم أشعلتها. ارتشفت منها قليلا لأترك الدخان يخرج من فمي في شكل حلقات طالما جهدت في اتقانها كنوع من المتعة. لكن في الحقسقة أنا لا أدخنها فعلا بل أكتفي باستنشاقها قليلا كي أطفئها فيما بعد على ذراعي الى جانب بقية الاثار الاخرى. كنت أتلذذ أكثر و الالم يسقس

أحلامي بحساسية كبرى. حساسية تختطف من الزمن برهة سرمدية تستوقف بها كل ما ابتدأ و تحث اللحضات اللاحقة على التراجع.

تناثر الرماد على ذراعي في شكل عشوائي متعمد تجمع أغلبه على معصمي بينما تراقص الباقي على صدري مقيما حفلة، مهرجانا، ماراثونا من الشغب . فيحدث كثيرا أن نشعر أن الالم يتلذذ بنا لكن كيف أن نتلذذ به؟ ماسوشيون حتى في الافراح، فلا نعرف حتى كيف نستمتع بدفئ اللحظة في خضم الخوف من الفراغ الهائل الذي يخلفه فينا تلاشيها.

***

بقيت في انتظار شغل في هذه الايام التي مرت عليّ بجفاف. ما أصعب الانتظار خاصة حيت يكون شيئا لست متأكدا فعلا من امكانية تحققه. أن لا يحدث أي حدث سيشعل فيك رغبتك في الانطلاق، أن تسير على نفس الوتيرة المملة، أن تصير أبسط الاشغال اليومية كالنهوض من الفراش ثقيلة. حتى أني صرت أتشاءم من قدوم الليل اذ أنه يأتي محملا بشتى أنواع الوجع. يا وجعي اللذيذ الذي لا ينثني عن صلبي كل ليلة، أنت الوحيد الذي يشاركني هذا الفراغ. يا حزني الذكي الذي يباغتني أوقات انعزالي. كم أشتهي ملئ هذا الفراغ بما يحقق لي رفيقا ضدك يمنعنك من محاكاتي فكوني وحيدا مع أفكاري الذاتية مخيف نوعا ما . شجار ذاتي يومي تتلاحم فيه الأفكار المتضاربة حد الصراع.

ضللت فترة لا يستهان بها أنتظر قضية أعمل فيها، عملت خلالها في التنظيف و الباء . بعث فيّ هذا العمل ببساطته و تواضعه احساسا بالراحة و المال لم يشبعنيبقدرما أعطاني احساسا بالرضى الداخلي. أنا الان عامل، أنا سيد نفسي. لم أعد في الجاجة –ماديا على الأقل-.

جميل أن تشعر بعدم اتكالك على الغير، أن تنفق أول راتب لك.. مع ذلك تراودني الاحاسيس السلبية من وقت لاخر. بعد شهرين صرت أفهم ثقل أجفان فاطمة تلك المرأة في المقهى و سبب نحافة ذاك الشاب شاحب البشرة الذي لم يتسنى لي حتى معرفة اسمه. أما سعادة مهدي و بشر محياه ظل لغزا قاتما قائما في فكري. كان كثير الابتسام رغم اعاقته و الظروف الصعبة التي يعيشها.. أما عن سر هذين العجوزين في قريتي؟ تذكرت في هذه اللحطة العم سليم و زوجته صالحة. لا أدري ما الذي دفعني للتفكير فيهما من بين الأشخاص اللذين اجتاحوا ذاكرتي هذه الليلة. كم أحببتهما حين كانا يستقبلانني في بيتهما المتواضع في صغري و تعطيني العمة قطع حلوى تجمعت لديها من الأعراس و المناسبات التي حضرتها. كان بيتهما عبارة عن غرفة كبيرة واسعة جدرانها غير مجهزة أو مطلية مع بضع قطع أثاث بسيطة. حتى حيواناتهم تبدو هانئة حين ترتع قربهم . أرضهم خيّرة و ماؤهم حلو و خبزهم ساد للجوع. تلك السيدة الطيبة التي تبدي فرحها باجتهادي في أي ما عملت . لم أفهم أبد سر سعادتهما و لا سعادة الأطفال الحفاة اللذين يلعبون في أحيائنا القجيمة بكل انشراح. هل السعادة نقيض المشاكل؟ أم ملازة لبساطة العقل و قلة مشاغله؟ و لين؟ ماذا عنك ! أنت سيدة الذاكرة. تجتاحين الذاكرة كجنذي متمرد. كم أود الانصهار فيك بلا عودة. أن ننصهر سويا و ننبعث ضمن كيان واحد. أن تكف الضروف عن الحول دونك و دوني. أن تبتسم لنا الأيام و نندمج في سعادة قصوى. فكرت في نهاية المطاف في أولئك المهاجرين الغرير شرعيين و ظروفهم الصعبة. فكرت في داخلي"غدا أصبح محاميا معروفا ذا نفوذ و اخذ حق هؤلاء." و مع تلك الفكرة غططت في نوم عميق. كانت تلك الفكرة اخر ما ورد علي ليلتها و لأول مرة منذ مجيئي الى هذا المبنى

العتيق، نمت ! نمت و لم أحاكي سماء الهجرة الخالية من النجوم..
نمت و لم و لم.. بل نمت .

عزيزتي لين،

أعلم أنك لا تقرئين، و لا بأس. فمعضم رسائلنا يصل فحواها الى الجميع عدى الشخص المقصود. فقدتك أنت مصدر انتشائي ، طعم أوهامي الملموسة. أنت.. أنت التي كنت تدمدمينني كأغنية بدوية شجنية الناي ممزوجة بألحان اسبانية سعيدة. ههه كنت دوما توجدين سببا للاحتفال حتى أننا لو حضلرنا في مأتم أفراحنا المستحيلة لاعتقلت الفرح في محاولته للفرار. ما أسوء احساس العدم. الاشيء. ممزوجا بذبذبات الحنين.

أتتصورين يا صديقتي أني أحترق كل ليلة لأنبعث من رمادي كطائر الفينيق دونك و دون جميع أحبتي في هذا المنفى؟ أتتصورين أن شخصا مثلي لا يتوقف عن الابتسام يمكن أن يحمل ثقلا جهنميا داخله؟ نعم، فبعض التفاصيل الصغيرة تكون موجعة أحيانا.. موجعة جدا. أعلم أنه لا يجب أن نثق بالذاكرة ثقة محضة اذ أنها تزيف الحقائق حسب الحالة النفسية التي نحن عليها الا أني أظل متمسكا بها. فيا عزيزتي ، حين يحب رجل امرأة يلاحظ كل تفاصيلها الدقيقة. طريقتك المتفردة في رسم خطوط الايلاينر على عينيك، عطر الورد الدمشقي الذي تعطرين به ما خلف أذنيك و حول معصميك، غمازتك اليمنى التي تعكس ملامح الطفولة فيك.. أن يحب رجل امرأة هو أن يعرف كل ممرات جسدها دون حتى تحسسها، أن يضع بقوة و حنان يده على قلبها فتكون له القدرة على تغيير ايقاع نبضاته. أنت؟ من أنت؟ أنت ذكاء عليسة و جمال أفينوس و كبرياء نرسيس و طهارة مريم .. و.. كمال لين ! أتعلمين، أصدق أننا نرى الأشياء من دواخلنا و بانعكاسنا. مثلا ان كنا طيبين حد السذاجة سنرى الغير بعين الطيبة و البراءة فننخدع كثيرا في مجتمع النفاق

اليوم. أنت كنت تتمتعين ببراءة الطفولة و ذكاء المرأة الحرة. لا زلت أشعر للان بهزات العشق التي ساورتني يوم أنمتني على صدرك على شاطئ البحر. في العادة تكون المرأة الرقيقة الخفيفة هي من تتوسّد رجلها مستلهمة منه الأمان و لا أدري فعلا ما الذي دفعنا الى تبادر الأدوار. شعوري كوني أنا حاميك باث على الأمان. كانت وتيرة أنفاسك هادئة كطفل رضيع و كنت بالنظر اليك أزداد هدوءا و احساسا فيك. نمنا. هكذا بكل بساطة. لم نمارس حتى طقوس الحب التي لربما شهدها هذا البحر الساهر على الدوام اذ احترمت المعتقد الذي أنتمي اليه و الذي ينص على تحريم الزنى. لست أدري فعلا ان كان ما فعلناه محرما أيضا لكني شعرت به كجُرع دواء أشفت أسبوعا كاملا من التوتر و الأرق الذان هما مرض العصر.

- حمزة ! un nom sublime انه يدل في معناه اللغوي على معاني الشدة و القوة كما أن من الشخصيات التاريخية الحاملة لذاك الاسم حمزة عم الرسول عليه الصلاة و السلام.
- هذا مدهش. لا يفوتك شيئ.
و أمسكت أنفها بين اصبعيّ كما أفعل كلما قامت بتصرف ضريف.
- ههه لا تندهش فقد قرأت هذه المعلومة علر الانترنيت.
- -اه هكذا اذن.
- ***

كم أن الحب جميل لهذ الدرجة و لا ينبغي لضجيج انكساراته أن يرجم صفائنا. ماذا عن أول مرة التقينا؟ كنت خارجا ذات صباح في خفتان ضوء الشمس الربيعية. كان صباحا باردا على غير عادته في أوائل الصيف الذي يقبل علينا منذ مارس

! أتمشى انعراجي القديم هربا من حالة الاختناق التي أصابتني فجأة دون مبرر. لمحت أمامي خيالين واقفين وسط الساحة الكبيرة. بعد أن اقتربت و زادت ملامحك اتساعا و اتضاحا شعرت باحساس غريب يدغدغني . كنت تسألين عن الاتجاهات و كانت المرأة التي تتحدثين معها دهشة لا تجيد التكلم باللغة الفرنسية. أما عن شغفي أنا بلغة المثقفين تلك فبدأ مذ كنت في السابعة من عمري اذ كتن ابن خالي جوزيف أو يوسف كما نناديه نحن حاملا للجنسية الفرنسية . كان أبواه قد تركاه لدينا و سافرا الى حين أصبح في الثانية عشرة بعثا له بتذكرة سفر ليلحق بهما . الى ذلك الحين كنت أشاهد الخيرات التي كانا يرسلانها له، فاقتنعت بأن بلاد الافرنج مريحة. و أمي حين بكت كثيرا كونك ستسافر الى وطن يحلم الفقراء منا بزيارته سمعتها تقول لابي كم يتغنى بها شبابنا ة كم تخاف عليك من سفر بلا عودة بينما و ددت أنا كثيرا أن أخبرك يا أمي، أنا ابن الثانية عشرة بأن الوطن هو الانتماء مهما كان شكله أو صيغته. الوطن هو أن نجد متسعا لنا نتشارك فيه خبايا أرواحنا مع محيطنا. قد يكون الوطن بلدا.. منزلا صغيرا.. ذراعي شخص ترتاح له كثيرا..!

بهذه الطريقة ولعت بفرنسا و قررت التوصل اليها بأي طريقة كانت ز كبرت في عيني خاصة لدى بلزاك الذي يجعلك تستشعر وصفها دقيقا أمام عينيك.

تقدمت نحوكما للمساعدة و لسبب أو لاخر شعرت بسلاسة كبيرة في الحديث معكو بجرأة لم أعرف من لأين اكتسبتها . أنا في العادة غير اجتماعي بالمرة و أجد صعوبة كبرى في

الائتلاف مع غيري . كانت الكلامات تتدفق بانسيابية مني و كم فوجئت حين علمت أنك في الثامنة و الثلاثين اذ يبدو الشباب معانقا ملامحك.
-هل أنت من السكان العريقين لمدينة قفصة؟ لهذه القرية بالتحديد؟
-طبع)في سخرية(و الا لما وجدتني هنا.
-(في اندهاش) ماذا تقصد؟
-لا شيئ.. لا تهتمي .. ما الذي جاء بك ال هنا؟
-أعمل في مجل الترجمةفي اللغتين العربية و الفرنسية . اللغة العربيةهي عشقي و غرامي الثاني بعد هواية التصوير. انها لغة ثرية و بليغة جدا في التعبير قد تجد لنفس المفهوم عشرات المترادفات متفاوتة القوة في المعنى.
كنت أثناء حديثك تتأملين الموجودات حولنا ، توجهين عدسة الكاميرا نحو نقطة معينة ، تتأملينها لدقائق معدودة تتصنعين الانتباه ثم تلتقطين صورا متتالية ترينها ايّاي بكل ابتسام. كأنك في غفوة حيت تلتقطين الصور. بامعان كبير،تستسلمين للحظة التقاط اللحظة كما تسمينها. و الأغرب من ذلك أن كل ما بدى لي تافها في السابق ، رؤيتك المنبهرة له جعلته مميزا و جيلا حتى الصور أعجبتني. حبّبتني في بلادي في لحظات ضعفين. أعجبتني تلك المناظر الصحراوية التي طالما نفرت منها اكتسبت حليا طالما استحقته. البرج الأثري بقفصة الذي ظل صامدا رغم السنوات الطوال منذ تشييده سنة 1434 من قبل أب عبد الله الحفصي، قصر الرباط بمالطة، الأحواض ارومانية التي هي حوضان محاطا بجدران عالية جدا المنطقة و هي ملا بأشجار النخيل و المياه العذبة و غيرها.

-حقيقة هذه لسيت أول زيارة لي لبلد عربي . زرت السعودية سابقا لكن البذخ الكثير يعكّر حممية الأماكن التي نقيم فيها . أحب حياة البساطة. شعبكم منفتح نسبيا بامكاني في بعض النوحي ارتداء قميص و سروال قصيرين دون أن أحس أني كائن غريب هههههه.
-جيد أننا لم نخيبك.
ابتسمت ثم وجهت الكاميرا نحوي بكل تلقائية و قلت :
-تعجبني تونس كونها وسطية في كل شيئ خصةصا في موقعها و طقسها و حتي في عقبة أهلها. لا افراط و لا تفريط. هنا تهمين الطبقة المتوسطة كما أنه لا تشدد ة لا انحلالية.
بقيت صامتا أتأمل حركاتها المتتابعة ثم أظافت :
-زرت البلذان الساحلية و كانت أكثر من رائعة أظف الى ذلك أنني أعشق التاريخ. شددت أكثر الى التراث القديم لتونس منها الحضارة القبصية. أتعلم أنها حضارة ستة الاف سنة قبل الميلاد؟
-نعم ظهرت في المناطق الداخلية في شمال افريقيا خاصة في تونس و الجزائر و قليلا في ليبيا.
-تقول الابحاث بان القبصيين كانوا ينقشون الصخر و يصنعون القلائد من مواد مبتكرو مثل قشور بض النعام ز صناعة الأواني الفخارية المختلفة الاشكال و الأحجام.
ارتبكت قليلا كون معلزماتي كانت محدودة حول هذا الموضوع فقلت في محاولة لاخفاء جهلي به:
-نعم ما أجل التاريخ . و ما أرقى الباحثين في التاريخ.
صمت قيلا ثم أضفت:

-بقدر ما أحبذ فكرة السفر الى حيث البحر الا أني لا أشعر بالراحة هناك بسبب الجهويات . أتمنى أحيانا أن تتوفر الظروف بمجرد توفير مواطن الشغل كبناء المصانع التي عادة ما تكون على السواحل من أجل تسهيل تصديرها الى الخارج الا ان المشكلة في كون السلع تنقل فيما بعد الى الخارج لذا كون المصنع على السواحل يساعد على انتقال السلع. هناك سلع تصنع هنا كي تباع فيما بعد في الشركات العبر قطرية باسم البلد الذي مولها.

- أنا لا أفهم كيف لأبناء بلد واحد صغير أل يكونوا متقاربين جدا و الفرق بينهم ليس سوى مساحة ترابية !

***هكذا كنت ، بسيطة في ملفوظك و طريقة عيشك و مظهرك دون تكلف مساحيق التجميل أو الاكسسوارات الثقيلة بل مشعة في تفكيرك.

***

خلي يقولوا ارتاح لوحدة و عليها عمرو ما سئل.. ولّاو صحاب في وقت قصير، تغزرلهم وح

ك تقعج تحير،يتمنى كل حد منهم يطير، عايش في عالم اخر دنيا مليانة حرير، كلام متاع ليالي و شهور و أعوام تقال في نهارين، خلي يقولوا ارتاحو لبعضهم في وقت قصير، صحيح مانيش كبير في العمر أما حكايتنا اتعب و تحيّر

***

بقينا يوما كاملا على تلك الحال الى أن انتهيت اليك تعطيينني بريدك الالكتروني كي نبقى على اتصال و توديعي اياك و كل شعاع متبق من ذاك النهار يحرق أعصابي شوقا للقاء اخر.

تونس بلد الوسطية ،

أحب بلدي تونس اذ كرّس أهمية التعليم و راهن عليه منذ الاستقلال و قدّر حق المرأة في كل المجالات. أشمئز شديد الاشمئزاو من اللذين لا ينفكون يشوهون سمعة بلدهم فللأسف قد يحكم أحدهم على شعب كامل من مجرد فرد واحد.

يا اخواني عليك أن تكونوا قدوة. فاتتصرف بالطريقة التي تحبذ أجانب فيكم. كفوا عن التذمر المدقع عن النقائص.

صحيح أننا في بلد في طور النمو لكن ذلك لا ينفي بتاتا و أبدا كوننا لنا ايجابياتنا العديدة. فنحن من البلدان العربية القليلة التي اعطت للمرأة مقدارا مرموقا من الحرية و لا نفتك منها حقها في الشغل و المعاش. نحن من راهن على التعليم و أولويناه أول أولوياتنا .. نحن باد وسطي..

من المقشعر للأنفس أن أرى فرنسيين و غيرهم يعرفون عن تاريخ بلادنا أكثر مما نحفظ نحن من ال؟أغاني الغربية الجديدة و أكثر مما نتابع أخبار الفنانين و الاجاني.

أجاني يتعشقون بلادنا بكل كسانهم بينما نحن عوض أن نسعى في المساهمة في تحسينه –على اعكس من ذلك- نتذمر و نتذمر و ... نتذمر...

متى كانت اخر مرة قمت بها انت و انا و هو و م بعل خيري دون الطمع في ادنى مقابل؟

هكذا بعض الناس يريذون أن يأخدو دون أن يعطوا، يطالبن بحقهم دون القيام بواجباتهم ، يلومون غيرهم على أخطائهم دون ان يلتفتوا الى مساوئهم او يعترفوا بها ف"الجمل ما يراش حدرته".

ههذا التشنج الفكري الذي يكبل اي مجتمع ، صدقا اذا ارادت اي امة التقدم فعليها بابناءها و بما ان الافراد يتكونون بادئ دي بدء في الاسر فعلى تلك الاخيرة المعيّة بكيفية التربية السليمة لابنائها ، الا تغرس فيهم مفهوم النقص، ان تنمي فيهم الثقة بالنفس، ان يكونوا مسالمين في عيشعم نابذين للعنف.

كفا ذاك التطرف بين كل فئتين "متضاربتين". فمتوسطوا الحال ينفرون من الاغنياء بحجة أنهم "رخويون" و هو ينبذونهم بسبب "قلة مستواهم". المتدين ينبذ من يخالفه كونه في رأيه "منحل" و الاخرون ينبذونه كونه "متعصبا"؟؟ !!

التشابه عامل طيب على التفاهم لكن بعض الاختلافات تكون ضرورية أحيانا لخلق جو من الخروج عن المألوف و الاعتيادي. فانجعل خلافاتنا سببا لتقاربنا لا العكس. ة بشكل أوسع اذا معنا النظرفي حقيقة شعوبنا سنجد أن جزءا كبيرا جدا من مشاكله اضطراب على مستوى النفسية. ففي الدول الفربية –وهذه حقيقة يحسد عليها- ما ان يحس أحدهم بذرة توتر أو قلق يتجه مباشرة الى المشخص. نحن برعنا في جل الثقافات الا في الثقافة النفسية، في طريقة فهمنا للغير بل لأنفسنا أولا.

هما لدينا تتدهور صحة الفرد الى ان يصاب بخمول و يظل من دون معاجة فيلجأ شبابنا اليافع الى هدم ذاته في محاولة للنسيان، التبخر في عالم وهمي يحقق له ما كبته الواقع الحي له.

لكن من بين جميع أدوات التناسي لم أدمنت هذه بالذات؟؟

كيف لك أن تجعل من تمزيقك لبشرتك الخاصة سبيلا لافراغ محتويات وجعك، تعطش قبيح للدم، لرؤيته و هو يسيل دون حتى محاولة كفافه فمراه يريحك، كأن يسفَر عن سراحه كخطيئة عضمى. و ذلك ليس جنون. مجرد قلق نفسي..نحن لا نعترف بالمرض النفسي في المشرق العربي. صحيح ان المعاينة قد لا تكون تكلفتها في متناول الجميع اذ على الاقل فالنتثقف بعض الشيئ. فانتغير نظرتنا على ان الشخص الزائر للطبيب النفسي هو "مختل عقليا".

ثم أتعلمون ذلك القيئ الفكري الذي تتفريس به كل حضارة لا تقبل الاختلاف؟ ذاك هو مصابنا فنحن رجعيون في بعض افكارنا و ليس كلها و لسنا محافظين لى بعض القيم التي طالما كرسها الماضي كالشهامة و الكرم و حفظ اللسان. مثلا لم يبحث البعض عن اتباع سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم في لباسه دون اخلاقه؟ و المسلم من سلم الناس من لسانه و يده. حفظ اللسان ينبغي ان يكون مادة صارمة مفصولة في القانون فالاعتداء اللفضي يكون في كثير من الاحيان أشدّ ضراوة من الجسدي. و فقط كون شيئ ما غير مرئي او مسموع لا يعني انه غير موجود فحتى الانسان في تركيبته يضم عالمي الغيب (الروح) و الشهادة (الجسد).

أما لتفسير جنوح بعض الشباب فتتعدد.. منها الظروف السيئة التي يعانون منها. أيضا الفشل في المحيط فكل منا بالفطرة يريد الظهور بصورة بارزة لمن حوله و يتم ذلك عادة بالتفوق في لبراسة كظاهرة

عادية للتلاميذ أو النجاح في العمل فيما بعد. أما عن فشل الطفل (أو المراهق) فانه يبحث عن اثبات ذاته في نطاقات اخرى كالفن و الموسيقى و الرياضة و المسابقات ... لكن في حال عدم توفر هذه النشاطات فانه سيلتجأ لأي شيئ لجذب الاتباه و هنا يظهر الجوح ، الشغب في القسم كمستوىأول فقط ليقول "هلم انا موجود".. التدخين، التفوه بالكلام البذيئ كي يتم سماعه. لا ارى عيبا في هذين الامرين الاخيرين و احترم ذلك طالما ان ذاك الشخص يتلك الافعال التي قد تقر سلطة المجتمع بانها سيئة لا يظرغيره وفق القانون الاخلاقي.

لكن الأمور تبقى نسبية في بلدي.

ألم أقل سابقا أني أحب بلدي تونس. نعم، انه بلد الوسطية في كل شيئ حتى في اعتدال طقسه و مكانه الاسترتيجي على الخارطة.و التباينات الفكرية و الاجتماعية هنا متشعبة بدرجة تخولك انتقاء بيئتك بذوق طيب.

قالولي الحب ما فما كان في الكتب , قالولي بيعة و شرية تلقاها نصب نصب , قالولي لكلو كذب و لكلو تضييع وقت و ما فيه فائدة , منو راو حاجة فارغة و زايدة , اما كي عرفت الطفلة اللي تنسيني في كلام العباد , اللي تنحي عليا الفدة و الكساد , اللي قالولي اخطاك تحسسني اكثر عبد فرحان في هالبلاد , اللي تعيشني في عالم اخر بعيد على التونفيق , حلمت نهار على واقع فيه احلامي عليه نفيق , ما حاشتي لا بكلام حلو لا بتصفيق , حاشتي باللي يحب و ما يغدر .. حاشتي باللي كلامي معاه ما يكفيه الف سطر و سطر .. نستنى في اللي يفهمني وقت الغصرة يكون معايا .. كي نغزر لروحي نرا وجهو في المراية .. دنيا صعيبة و لكلها دروس .. الله غالب الحب يعطي للي ما عندو احساس .. هاذا حالي و حال كل الناس Juste écoute ton coeur , regarde ton amour comme une fleur , avec toi il ny'as pas de peur , mon amour ne cessera jamais de t'aimer ,enfaite tu me plait ...

i opened an empty page i shrivered as i tried to write your name my hands betrayed me they say love is never selfish sorry for not being the one as you expected معاك الفرحة مهما صار و مهما يصير , مادامني معاك عمري ما نحير معاك الاحزان , انت الطفلة اللي معاها مطمان , ماني ناسيك كيف كنت بجنبي , اني منصلبك و انت من صلبي تنحي عليا فدتي و غلبي , يا بنية نحب راك انت حبي

i tried to keep you warm baby but there's a cold storm running through my veins sorry for not being prince charming that you dreamed of but i hope you still my sun that shelters me whenever my demons crawl to my head Juste écoute ton coeur , regarde ton amour comme une fleur , avec toi il ny'as pas de peur , mon amour ne cessera jamais de t'aimer ,enfaite tu me plas

ماذا عن يا لين..

أتساءل عن وضعك الان .

تعلميين، أن نحب شخصا يعني أن ندعه يكتشف ذاتنا الباطنية دون محاولة منعه من ذلك فالانفتاح يكون تلقائيا و الحب لا يعني الاحتجاب، الاختفاء وراء هالات سوداء من الغموض و الاسرار الدفينة لكن مع ذلك يضل لنا جانبنا الخفي و لنا كامل الحق في حجبه.

تعلمين أيضا؟ أن نعلم عيوب الاخر فتنقبلها فذلك حب، أن نعلم عيوبه و نعمي عيوننا عنها دون فهمها أو قبولها فذلك غباء.

كل ما أعنيه هو : الحب اشتراك يصير بين اثنين ينصهران في روح واحدة. الحب يعني الاندماج الخروج من العزلة و استقبال الحياة بمنظور واحد. لكن المحافظة على فردانيتك يبقى مهما. تبقى ذاتك المستقلة.

أملت رأسك على صدري مرة على شاطئ البحر. ظحكتِ جدا. ما أعجبني أن حركاتك كانت لم تكن مفتعلة بل في كامل التلقائية كأنك أطلقت العنان لجسدك كي تحرك كما يشاء قلبك. فالقلوب تعبث بنا عبث النار في الوقود.

***

اذا طلبت تشغيل شخص في عمل ما فان أول ما سيسأل عليه هو "كم سأربح؟ عدد ساعات العمل؟ ظروفه؟ أهي مريحة أو مرهقة...." و اخر ما قد يسأل عليه هو النجاعة في مستوى العدالة و ما اذا كان ذا فائدة للمجتمع أفيه تقدم أو اظافة.

عنّي أنا أكره العمل الرتيب، ذاك الذي يجعلك تقوم بنفس الشيئ مرارا و تكرارا، حتى الطبيب الذي يساعد يوميا المرضى أرلى أنه لم ينجح في اثبات ذاته من بين جميع الاطباء الاخرين. لكن ماذا لو أظفنا بعض الابداع الى مهنته؟ ماذا لو قام ذاك الطبيب بمحاولات لايجاد دواء جديد، معالجة مرض مستعصي.. و هطذا..

كثير من الناس لا يرتاحون في عملهم. عملي بالنسبة اليّ أجمل مكان أجد فيه نفسي و اخاطب فيه ذاتي. لمَ نحوله الى مكان للقلق و التوتر؟ لمَ؟ لأنهم اختاروا عملا لا يرضونه فأصبحوا مع الظغط و التوتر لا يطيقونه. فهؤلاء الناس لربما اختاروا شعبهم بناء على رغبة ابائهم ثم مهنتهم بناء على مقدار المال الذي سيجنونه راجيا قدر ما يمكن من الراحة فيه. أنا لا أعني أنه عليك الخمول و الكسل، فالعمل في حد ذاته كرامة من عامل النظافة البسيط الى والي المدينة. العامل اليومي البسيط أرقى من البطالة و لا تقل لب يا سيّدي المواطن أنك بشهادتك و لم تجد عملا يناسب مستوى دراستك. فنحن اعتدنا في المدرسة حين نتحصل على أعداد رديئة أن نلوم الاستاذ لابعاد اللوم عنّا ثم ما نلبث أن نصدّق تلك الكذبة فنتوقف عن بذل المجهود لتحسين المستوى. و في النهاية نحن لا نكذي الّا على أنفسنا.

صحيح أن الدولة تمنع الأعمال العشوائية مثل "نصبة" في الشارعدون ترخيص لأنها تؤذي أصحاب الحوانيت اللذين يدفعون الأداءات اتي تستعمل لصالح المواطن لكن مقابل ذلك تمنع عمل شخص بسيط الذي في نفس الوقت قد يضر أصحاب الحوانيت ببيعه لنفس السلعة لكن بسعرر أقل. من المخطأ هنا. الدولة أم المواطن؟

ما أجمل ذلك العمل ، كما الشخص الذي نجد فيه أنفسنا و جزءا من هويتنا. عذرا أيها الكوجيتو الديكارتي فيمكن القول ايضا "أنا أعمل اذن أنا موجود". أن نثبت أنفسنا بالعمل دون شيئ اخر.. و هذا حال بعض العاطلين عن العمل المصابين بالاحباط اذ يميلون عن الحياة بسبب الاكتئاب الذي يسببه فقدان الاحساس بالقيمة خاصة مع التجخل السلبي للأبوين، حين يكون شبه ميت في أعماقه لأنه لا يعتمد على نفسه و غير ذي منفعة لعائلته ليأتي أحد أبويه لينهال عليه بوابل من الشتائم من قبيل "أنت لا تفيد في شيئ" "أنت علة علينا" "ماكش فالح في شي".

أن يشاهد أقرانه ناجحين في حياتهم و هو لا يزال عند نقطة الصفر. أن يستيقض الشخص المتوحد في الثالثة صباحا مذعورا اثر كابوس مرهق. ما احساس الأب يا ترى حين يرى ابنه يبكي على لعبة جديدة وعدها ايّاه اثر نجاحه في دراسته أو حذاء جديد لا يتداوز ثمنه وجبة منتصف النهار التي تناولتها بالأمس في مطعم عادي؟ أن بنظر الابن للأمه تئن بصمت و خفية الليلَ بطوله دون أن يتوفر له ثمن دواء لجمّى عابرة ؟ أن تصاب بحالة ضياع عضمى.. كلنا مبدعون، و نحتاج فقط لقادح يفجّر فينا ذاك الابداع.

***

نحن ضحايا. أتعلمون من؟ ضحايا أفكارنا الخاصة ، بتفكيرنا القلق في المستقبل و الامعان الشديد في الماضي حتى ننسى أنّ لنا حاظرا! أن يؤيؤدي بك التوتر و اظغوط اليومية الى تمني الموت و الحياة في ان دون أن تتمكن من تبين كيفية جمع رغباتك لهذين المتناقضين لكن ما تتفق عليه أعضاؤك هو أنك لست بخير.. أن تلتجئ لرفع صوت الموسيقى بسمّاعاتك عاليا عسى أن تحجب عنط الضوضاء و زحمة الأفكار في رأسك. أن ينحوّل الجسد لبعض المصابينبالماسوشية الى الة تعذيب. ذلك أننا نعذبون أصلا من أفكارنا الخاصة. أن تجلس ذات مساء تتأمل ما صنعته يداك. أن تتذكر كل خدش و سببه و وقت انشائه باتفصيل.

ماذا لو تناسينا مقدار بحثنا عن الرفاهية مقابل توقنا للراحة النفسية؟ عمل جسدي مرهق يهديك أصنافا مختلفة من الاكتفاء الذاتي أفضل من لا شيئ. انسى الربح المادي للحظة و كيف سيكون مظهرك ′ ′prestige ′′ أمام رفاقك لتقول بكل فخر و اعتزاز بالنفس "أنا أعرف قمتي أين تكمن. انها في كل شيئ ترك في بصمتي.. عملي بالأخص مهما كان صغيرا ففهو ذو فائدة و لست محتقرا ايّاه و ان كنت تحتقرني لشيئ وجت معه و لم أختره فهذا لأنك ترى نفسك أكبر من حقيقتك."

لكن ماذا عن ذاك النقد الذي نخاف منه و نتحاشاه؟

النقد.. النقد..

الحقيقة الملرة أنّ كلا سوف ينقدك و لو بصفة داخليّة ذاتية. كلّ سوف يلقي عليك أحكاما مسبقة. الأمر جد عادي و لا داعي لتعقيد الأمور. أما عن نقدك لذاتك يجب أن يتم بحذر مع محاشاة تحوله

لانتقاد.. الفرق بينهما حرف واحد و التأثير الذي يخلفانه فيك تتباين حدّته. مشكلتنا في النقد الخارجي منا أننا لا ننقد بموضوعيّة بل نتطرّق للسبّ و الشتم و الاستطراد الى ما لا علاقة له بالموضوع قيد النقد. يجب أن نتعلّم أسس الحوار الصحيح لمحاورة نافعة لا لمشاجرة لا طائل منها. و ما يمكن أن أستخلصه من تقييمي لذاتي هو أني فعلا شخص مليئ بالتناقضات. أني كنت في السابق أعتبر نفسي ضحيّة فلا أبادر في حل مشكلتي بل أبحث عن التعاطف من الغير رغم أني لا أحكي مشاعري لأحد على رغم من حاجتنا الفطرية للبوح. قد نحاكي أحيانا كتابا، شجرة، حيوانا أليفا.... كلنا في حاجة للتعبير لذا أنجرف كثيرا بالكتابة اذ لا أجد متنفسا لأفكاري. أنا عجيب في تناقضي اذ أظل أشعر باليتم في حظور أمي التي هي بالدنيا و بالفقر مغرورقا في نقودي التي بدأت تتجمع لديّ بما يشبه الثروة كما أشعر بالعجز و أنا في كامل قواي.

فعلا، الوحدة الحقيقية هي وحدة النفوس لا نقص الأجساد البشرية من حولنا.

28/أفريل/2012

نحن نعيش حياة واحدة فلمَ كل هذا التعقيد؟ وحيد؟ صاحب. عطش؟ جائع؟ اشرب و كل.تشعر بالملل؟ قم و ارقص في أعماق الطبيعة الخالية من الأنظار و اصرخ بكامل أعماقك فمن أجمل الذكريات تلك الحماقات التي نرتكبها في لحظة جنون.

لا تسألوا عن مدى فرحتي باستقبالي لأول قضية في حياتي. كان ذلك منذ ثلاثة أسابيع. كانت سهلة و بسيطة: الدفاع عن شخص متهم بسرقة أملاك خاصة و بالعبث في أسهم الشركة. نجحت فيها. ثم بدأت تتالى علي القضايا تلك فشعرت أخيرا أن القدر بدأ يسايرني الى أن جاءني يوما نداء من ذاك الرجل الضخم الذي قابلته حين قدمت. لديّ عاذة سيئة في عدم حفظ الأسماء.

- خبر مفرح. ستنتقل من هنا اللا مكان أجمل و أرقى بكثير.
و لمّا شاهد علامات الانلساط عليّ أردف قائلا :
- أرى أن ايطاليتك تحسنت كثيرا ! Perfetto

.... لكن عليك بقضية واحدة قبل ذلك ربما هي التي ستقرر مصيرك.

بدأت فجأة أشعر بجدية الموضوع خاصة مع احتداد نبرة صوت "الرجل الضخم" –كما أسميته أنا- رغم لكنته الساخرة المعتادة.

-اتهام بالقتل.

قالها بكل ايجاز و اختصار.

-و هل هو بريئ؟

-و ما يهمك في ذلك؟

-أتعني أنه حق مجرم؟

-و أولئك الأشخاص اللذين دافعت عنهم طوال الأربع أشهر الماضية؟ ماذا اعتقدت؟ فقط المسألة معقدة قليلا هنا. هناك متهم اخر عليك الصاق التهمة علية. فقط.

مرّت لحظة صمت قبل أن يظيف :

-هيّا هيّا ! لو استخدمت ذكاءك الاستثنائي ذاك في الحياة الواقعية دون المهنية لصرت الان مديرا للكون.... اه .. لديك مهلة يوم للتفكير و الا سنجد محاميا اخر للقيام بذلك.

ابتعد عني ببطئ. كانت خطواته تنم عن برودة دم موترة للأعصاب رغم حركاته التي بدت انفعالية في كثير من الأحيان.

"ذكائي الاستثنائي"؟ ما أجمل تلك العبارة و وقعها الرنان علي. ذكّرتني بوقع اخر كنت أحب سماعه لكم لم أتذكره جيدا لحضتها من فرط السهو.

28/ماي/2012 ال 22:00

على شاطىء هذا البحر المتوسط الذي شهد جميع انكساراتي و خيباتي. اجتمعت بصديقي مهدي أقرب رفيق لي. يستغرب البعض من مدى ثقة في شخص لا يضنون أني عاشرته بما فيه الكفاية لكن أتعلمون؟ الحب و الصداقة لا يقاسان بالمدة فما يمكن أن يحدث ففي غضون شهر يمكن أن يكون أكثر بلاغة من عشرين عاما من التقارب و التلاحم..

كنا نتحدث بسير عادي. كنت أود أن أستشيره في المسألة التي أرقتني هذه الليلة لكن الحديث أخذ فجأة منحنى غير متوقع.

-أن تجمع ثراء شجاعتك و فتات جرأتك كي تعيش اللحظة بكل عنفوانها دون التفكير في العواقب لذلك لذة لا يعرفها أعداء الحياة. أولئك اللذين يأخذونها محمل الجدو يفكرون في كل مشكلة بقلق مخيف. يتزهدون في السعادة و يعيشون الحزن بكل بذخ، يفكرون في الغد مهملين اللحظة ، يعيشون في طيات الماضي. لم يتركوا لنا حتى فرصة التحدث مع أرواحهم فهم مجرد أطياف تسير بيننا مشبعة برحيق التعاسة.هه . حتى لفظ هذه الكلمة في حد ذاته يثير اشمأزازي. أما عن بخلاء الفرح فقد استأثرا حرفيا بأشنع أنواع البخل فهم يتزهدون عليك بابتسامة التي يجدون فيها مجهودا يفوق طاقتهم بكثير. ماذا عن ابتسامة صباحية مستئية لا تتوقف عتد حدود الزمن بل لا تعترف بمبدا الزمن أصلا. ما أجمل أن تكون هناك لحظات تتمنى أن يتحجّر فيها الوجود في تلك النقطة الذهبية كأن لا شيئ بعدها أو قبل.

لم أجبه و انما أغمضت عينيّ بعنف شديد محاولا تبديد ضبابة التوتر التي غيمت عليّ.

-لم تخبرني حتى الان عنك. من أين أنت؟ ما الذي قدم بك الى هنا؟ احسبني خوك.

ها هو نفس السؤال يتكرر علي.

- ماذا تريد أن تعف عني عدى الذي عرفته أصلا و أنا معك؟
- نعم لكن بعض الاشخاص مثلك يكتنفهم الغموض لدرجة أننا نجد صعوبة في الاقتراب منهم.

أجبت بعد تنهيدة طويلة:

-أغلقت الأبواب النافذة الى صدري منذ مدة طويلة. كنت خائفا لفترة من الزمن من مجابهة نفسي. لكني تشجعت ما ان زرت الطبيب النفسي لاول مرة. قال لي حين أخبرته عن وضعي الذي أشعر كلما بحت له كلاما أني أتكشف أمام نفسي شيئا فشيئا " لا بأس. حالتك ليست شاذة أو نادرة فلاحباط حين ينكلكك يجعل كل شيئ يبدو مستحيلا خارج نطاق قوتك. النهوض من الفراش في حد ذاته يصير عسيرا. لا شهوة لك في المضي قدما لكنك موقن في نفس الوقت أن قعودك مكتوف اليدين في زاويتك لن يغير شيئا. يجب أن نتحلّى نحن كبشر بالشجاعة لكافية لمواجهة أنفسنا بالحقيقة و نكون أشجع مع مرارة تلك المأساة.".

ابتسم مهدي في لطف، ربت على كتفي بيده الغليضة لكن برقة ثم قال:

-يعجبني ذاك الطبيب.يبدو أنك موجوع من شيئ قد يكون .. شخصا؟ أليس غريبا في علاقاتنا الدنيوية أن يكون مسبب الجرح و مداويه هما الشخص نفسه؟ و تارة تلوى الأخرى يتبادلان الأدوار؟ اذ مرة يؤذي و مرّة يداوي. كأن يتسلى بنا على سبيل المتعة؟

فكرت لثوان في جميع علاقاتي..

-أمي! أمي هي الوحيدة الوفية الصادقة الحنونة البذولة لي و البقية؟ لا أعلم عنهم سوى وجوب عدم الوثوق في أي كان. أمي التي كلما هرولت اليها وجدتها غارقة في دوامة لا نقطة وقوف فيها. ذلك الجزن المرتسم لا فقط في عينيها بل في كل نفس من أنفاسها هو الذي دفعني الى ما أنا عليه اليوم. لمَ لا تفاخر بي أمام الناس؟ هي تحبني و لا يخفى عليّ ذلك لكنها في أعماقها تتمنى لو كنت شخصا اخر . قابع ذاك الحزن بيننا بكل فضاضة كي يزيد الهوة بيننا اتساعا الى أنن تستحيل غيابا، شوقا، غربة، انتفاء!..

-عودة الى موضوعنا، بعض القرارات لا يجب أن يتدخا فيها أجد سواك الأمر كله بيجك ان وافقت أو لا.

***

لا زلت أؤمن أن ألطف ريح من رياح الجنة هي صديق يفهمك. لا داعي أن يكون مثاليا بمواساته لنا دوما لحظة تعبنا أو تقديمه

النصح الصحيح و المساعدة. يكفي أن يكون موجودا و متفهما.أن لا يسيئ الضن بك و استشعاره لصدق نيتك في أفعالك و أقوالك ، أن يعرف تماما من أنت دون أن يعير انتباها للاشاعات التي يحبكها أشباه الانسان عنك. أن يشعرك بصدق حضوره ححولك و أنت تنتفي المصلحة و الاستغلالية بينكما. يكفي صديق واحد لاستخراجك من وحل العزلة كما أومن أن للصديق حاسة خاصة تخبره عن طقس روحك و يستشعر ركود مزاجك حتى لو كنت مرتديا لأكثر أقنعتك ايهاما بالسعادة فالصداقة من أجمل الهبات الممكنة.

***

تأملت جدار الغرفة المندى و اخترقت رائحة العفن التي شبعت منها أنفي بحدة. تنهدتت مجددا الى أن خطرت لي مسألة. ماذا لو صلت ركعتين لله عسى تفرج الأمور في وجهي؟

توضأت بدقة شديدة دون أن أتأكد من مدى صحة الحركات التي أقوم بها. لم اعرف اتجاه القبلة فوليت وجهي نحو الاتجاه الذي ارتحت له. كم شعرت بدفئ جميل. لأول مرة أشعر أنني ملك لشيئ أعضم من هذا الكون بأسره، أني ملك لله وححة ، أ، تتعبّد جوارحي لمن يحمل جميل الصفات من الرحمة و الكرم و العدل و الغفران. أن تستشعر أن الله عادل يعني أن تتقبل ما لاحول لك و لا قوة في تغييره . أن تتأكد من أن خير يصيبك هو هدية من عنده و أن كل شر يمسّك ما هو الّا خير مقنن.

قال لي مهدي قبل أن أودعه منذ دفائق معدودة :

-نصيحة من صميم روحي: أعن نفسك قبل أن يتفاقم الأمر ففي معضم الأحيان لن تجد بالضرورة شخصا صادقا كي يسقيك أيام جفافك. بعضهم سيمل من سماعك و يصيبهم الضجر منك في نهاية المطاف ، اخرون سيكتفون بالاستماع اليك من باب المسامحة لا غير و هي مساواة في كل الأحوال لن تغير شيئا من واقعك و البقية سيلقون باذانهم حولك بل و سوف يحيطون بك بكامل انتباههم لا لشيئ فقط للتلذذ برؤيتك مرهقا. فالبعض يعيشون حياتهم و أغلب البقية يمضونها في البحث عن فلانة و زوجها و فلان و عن سبب طرده من عمله.. بشر! صاديّون بالفطرة..!

أنا أسكن كل شيئ داخلي و كم يحتاج من هم مثلي للبوح. لكأنّ ثقل الكرة الارضية بوديانها و غاراتها يغفو على صدري.. تماما هنا ، حيث موضع الالم.

لكن عن موضع الاهانة أن تستبيح دموعك لغير الله و في غير سجدة تتعبّد فيها كل جوارحك لله و تفيض بكل خباياها له الرحمان الرحيم. الله الذي لن يردك ل"ازعاجه" في الواحدة بعد منتصف الليل. الله الذي يعرف كل ما بك لكنه يشتاق لسماع دعائك و هو العليم بذات الصدور. الله الذي لن يسيئ فهمك مهما أخطأت في التعبير و خانتك ألفاضك. الله واسع الرحمة. هو فقط يمتحننا و نحن علينا حسن الاختيار. للأسف أن تخبر الناس عن مشاكلك فهذا يعني فضيحة أسرارك لبشر لا يجيدون الحفظ . سيتحدثون بك في مجالسهم كما يتحدثون عن غيرك أمامك . سيسخرون من أمور تؤرقك حدّ الأنين. نظرتي سلبية، صحيح،

و هنيئل لمن له أم و أب هما له نعم الصديق. لكن رجاء لا تكسروا قلب الام بالتشكي فقلب الام خاصة كبيضة، رخوة من الداخل و الخارج و هشاشتها الدائمة تؤذن بالتهشم فحافظوا على ذلك الكائن الرقيق ملئ أعينكم: فتوبيخهم خوف عليكم، صراخهم حنان و جمالها يتبدى هناك، في حبها الصادق الخالي من جل أنواع المصلحة و النفاق. أن نحب شخصا لا يعني أن نسانده في كل ما يفعل بل أن نوقفه و لو بشد الأذرع حين يحيد عن الطريق.

و تبقى بعض الامور التي تكون فيها انت وحدك صاحب القرار. ولدت وحيدا، و ستموت و تودع في القبر لوحدك فلا داعي للاتكال المفرط على المفرقين لك.

5:00 س صباحا،

ما أجمل ذلك الضمير الحي الذي يوقضنا في حالات اللاوعي التي يغلب فيها الهوى على استخدام العقل فينقضنا من حيوانيتنا بل قل الجانب الغريزي فينا فالحيوانات ليست بالضرورة مثالا للوحشية.

ما أجمله و كم يعذبنا في الان نفسه.

زارني الأرق هذه الليلة أيضا اذ شعرت بانسانيتي تتكسر الى ملايين الشضايا أمامي. كأن أشيائي الدفينة كلها استيقضت في ليلة جهنمية كي تأخذني الى الحافة.

تراءت لي أشباح صراخ و دم و مشاهد ضبابية.. وجه جميل يتشتت أمامي .. بكاء حارق و موت عنيف..

شعرت بالغثيان فذهبت لأتقيّـأ كمحاولة لاستفراغ الاحداث التي داهمتني من هذه الذاكرة الذبيحة. حتى البكاء ممنوع. لمَ حرم البكاء على الرجل في بلداننا العربية؟

"اذا أردت أن تعيش فعليك أن تميت قلبك"

لا أذكر حتى صاحب هذه المقولة بل أذكلر فقط النبرة التي قيلت لي بها.

"اذا أردت فعليك أن تميت قلبك"

أفريل 2014

في مثل هذا اليوم من العام الفارط ..

استيقضت على خبر نفض الراحة عنّي.

فتحت حسابي الالكتروني لأفاجأ بخر انتشار الارهابيين في جبل الشعانبي و وفاة بضعة جنود. قرأت بعض تعليقات كانت معضمها متوجهة بأحر التعازي لأهالي الشهداء و الدعاء لهم بالصبر. شاهدت فيديو حيث اجريَت مقابلة لأولئك الأهالي و استغربت لكونهم كلهم جنود من المناطق الداخلية.. موجع احساس الفقد خاصة للثكلى. تذكرت غاليتي. كيف أن ثلاث سنوات مرت . ثلاث سنوات لم أتصل فيها بأهلي تمحورت كل محاولاتي في ليلة عيد ما ان أجابني صوت خشن جاف على الطرف الاخر حتى أقفلت السماعة في حركة لا ارادية سريعة. ما أدركه اليوم بعد فقداني لكل النقود اللتي تحصلت عليها هو أني انسان غبي. ثلاث سنوات ، بل أربع.. أفنيتها في مطاردة وهم راودني خلالها الأمل لحضات قليلة كي يودعني مرفوقا بخيباته الحادة. الأمل هو تلك الشعلة المنيرة المحاطةة بشتى أنواع السواد و التي نظل متشبثين فيها رغم ضئلها و بعدها. أما الحزن.. الحزن.. فهو يشوّه أجمل ما فينا حتى كأننا لا نعرفنا، ينهش أجسادنا كما يفعل الدود في جثث المقابر، كما يتلاشى الحبر شيئا فشيئا في رقعة ماء كريستالية. حتى أن الرسول الكريم كان يتعوذ منه في قوله " اللهم اني أعوذ بك من الهم و الحزن و أعوذ بك من الجبن و البخل و أعوذ بك من غلبة الدين و قهر الرجال".

و ماذا عن الارهاب؟ هذه الظاهر الجديدة في تونس. صحيح كونها حثت مرة لا ب

يعني أنها ستتكرر لكن يجب التحذذر في كل الأحوال. لمَ لا تتصل تونس بالجزائر الشقيقة؟ هي التي حاربت الارهاب لعشرات السنين و لديها خبرة في المعدات و التكتيكات في ذلك. لطالما كان الجزائريون و التونسين في وئام أخوي. الجزائر التي ستحتفل بعيد استقلالها بعد أشهر و سنحتفل نحن معها.. و عن كل ارهابي، أيتناسون قول الله تعاى " و من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا و من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا" . لم يحدد الله تعالى هنا هوية تلك الروح أو حتى مذهبها الديني بل اكتفى ب"نفس". القتل الجماعي هو انتهاك قبيح لأرواح لا يعلم مدى صلحها سوى الله و من يعلم ما في الصدور سواك يا الله.

لا تستطيع أن تقيم شخصا بناء على مظهره. قد تكون تلك الفناة ذات اللباس القصير و الشعر المفروش على كتفيها أكثر نقاء و ورعا من ذات الحجاب و العكس بالعكس. المظهر ليس معيارا للحكم على االأشخاص لكن للأسف نحن نعيش في مجتمع المظاهر. اللباس وحده أحيانا يكون بطاقة تعريف نلصقها على أنفسنا كي تتم قراءتها بشكل مختلف من شخص لاخر. ما أجمل أن نؤمن بأن الأناس جواهر في دواخلهم و ما علينا سوى التنقيب فيها لكن للأسف الناس تنقب في عيوبك و لو متجاوزة كل المناجم خطرا و تتسلى بك و لا ترضى الاعتراف بما رتكبه هي من حماقات.

ما أجمل الديانات و الانتماء الى طاقة عليا.. ما أجمل شعوري بالانتماء حين أفكر في دينيَ الاسلام. هو في تحريم الكذب و النفاق

و تحفيز العمل الصالح. الدين الاسلامب في البر بالوالدين و حفظ اللسان. حفظ اللسان يجب أن يكون فصلا صارما في القانون.

هناك بعض الايات التي تنساب على صدر المؤمن انسياب الناء في حلق الضمان "ونحن أقرب اليه من حبل الوريد" "ادعوني أستجب لكم " "و انما قولنا لشيئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون"... ايات تجعلنا ننسى همومنا للحظة.كيف لدين رحمة كهذا أن يتحول الى رمز للارهاب على يد بعض المتطرفين?!! الاسام هو دين التسامح و الرحمة . فالنثبت ذلك لمن لا يعرفنا عبر تطبيقنا لبادئ الاسلام الحسنة التي يدعو اليها فيقتنع الناس به لا عن طريق التخويف و التهديد ف"لا اكراهفي الدين". ماذا لو صنعت أحواضا مائية أمام بيتك كي تشرب منها الحيوات الضالة؟ ماذاا لو حملت المؤونة عن شيخ عجوز في الشارع؟ ماذا لو تبرعت بممتلكاتك القديمة و التي لا تزال صالحة للاستعمال لفائدة الأطفال الصغار و المساكين؟ بعض الأمور القيام بها لا يستهلك جهدا كبير و مع ذلك أجره و ثوابه عند الله عضيم. بل ماذا لو قررت أن تكون جيّدا فقط لنفسك و من أجل نفسك فقط؟ فينتفي الهدف وراء عملك من تملق للناس و الظهور بمضهر الطيب الصالح؟ فقط الراحة النفسية و حسن النية للتقرب أكثر من الله. الله الحي القيوم الذي يبث التوازن في الأرض.
أتساءلت يوما عن مدى حرفية هذا الكون؟ كيف يتعاقب الليل و النهار بشكل منتضم و تقومم الحيوانات بشكل غريزي بحت

بأدوارها، كيف تنبت الأشجار و كيف تثمر رزقا طيبا؟ كيف أن كل ذلك يسير وفق نظام معين مبدؤه التوازن و النظام.

ذكرتني أحداث الشعانبي بتراجيديتها بأحداث الرديف يزم 77فيفري/2014. صحيح أن الأمر لم يكن مثلمل حدث في الجبل من انفجار ألغام و ... لكن بعض التواريخ تظل ملتصقة بالذاكرة لا لجمالها بل بمقدار الفاجعة التي تخلفها فينا. كان انفجار غير متعمد حدث بين معتمديتي أم العرايس و الرديف تسبب في رجة تعادل 7 درجات من سلم ريختر في مناجم استخراج الفسفاط. توفي أبي يومذاك. لا. لم يتوفى بسسب الانفجار اذ لم لم يسفر عن أي ضحايا بل صادف موعد فراقه الحياة ذاك التاريخ.لم تكن لي حتى فرصة عزاء أهلي . وصلني نعيه عبر بن عمي الوحيد الذي بقيت على اتصال به. مودع هو احساس الفقد.. أن تتبخر ذات بشرية كانت تعانق أنحاء حياتك بالأمس! الموجع أكثر في حالات فقد أحبتنا عن طريق الموت أنك ستشتاق لهم أكثر فأكثر و حين تشتاق لهم بشدة لن تجدهم أمامك لتخبرهم كم اشتقت لهم في غيابهم فقط تظل تناجي أشياءهم القديمة التي تصبح ذات قيمة معنوية كبرى. أذكر حين توفي جدي رحمه الله أنهم أغلقوا باب حجرتة لأربعين يوما و منعونا نحن الأطفال من الدخول اليها أو العبث بعكازه أو كتبه القديمة.

لا أنوي العودة قبل أن أثبت نفسي أكثر. لا أريد أن أعود ذلك الذي يرى نفسه ضئيلا جدا. نظرتي للحياة ضيقة جدا فيما يتعلق بالواقع و

واسعة جدا في أمانيَّ التي بدأت للتو في التحقق. أريد أن أكون مختلفا، مختلفا بامتياز.

التفت الى لوحة "الطفل الباكي" الناءمة بهدوء على الجدار المقابل لمضجعي بل قل الأرقَةَ يهدوئها المخيف ! لم تكن اللوحة أصلية لكني انبهرت بها. هي في الاصلل للفنان الايطالي "جيوفاني براغولين" و اسمه الحقيقي "برونو أماديو".

أشعر أن ذاك الطفل مثلي لا ينام.

حيكت العديد من القصص حول هذه اللوحة اذ يقال أن صاحبها بينما كان جالسا في بيته انتبه لوجود طفل صغير في الشارع قربه. كان الطفل فقيرا و في حالة بكاء مما أثار شفقة أماديو و ما كان منه الا أن اصطحبه معه الى منزله ليعتني به. ثم خطر له أن يرسم له صورة ' 'portrait'' . و هكذا، تعددت زيارات الطفل البكي على الفنان و تعددت لوحاته التي رسمها عنه. لكن بعد فترة قام كاهن بزيارة الفنان ففوجئ بشكل واضح حين رأى الصبي. و حين سأله الفنان عن سبب ارتباكه أن هذا الصبي "دون بونيللو" حامل لعقدة في نفسه اذ كان قد شهد احتراق أبيه حتى الموت يوم شبَّ حريق في منزلهم و أنه قد صار هائما في الشارع مذ يومها و المصيبة أنه أينما حل تحل معه الحرائق.

المهم أن عديد اللوحات بيعت حوالي أوروبا مما أكسب "برونو" ثروة هلئلة لم يبخل باغداق جزء منه على الصبي. لكن ذات يوم شبَّ حريق في منزل الفان الثري الذي ذاع صيته بشكل كبير .

بالطبع اتهم اتهم الصبي لكنه هرب من المنزل و لم يعد، تاركا الفنان في حالة احباطكبيرة بعد أن دمرت معضم ممتلكاته. يقال حتى أن هذه اللوحات ملعونة اذ أينما وجدت شبَّ حريق.قصة هذه اللوحة عميقة و شدتني اليها فهي ذات جانب انساني درامي شديد الاحتداد. كما أحس أن الفتى في الصورة مستيقظ على الدوام ليؤنسني في أرقي. تذكرني بلوحة "امرأة بمظلة" أو "مدام مونيه" و ابنها التيلم أتمكن من دفع تكاليفها رغم أنها مجرد نسخة مقلدة. ربما تكون من أشهر أعمال مونيه على الاطلاق نظرا لانتشارها الشديد و اشتهارها . تتوسط اللوحة سيدة ذات ثوب أبيض ذي ثنايا ، تبدو الريح قادمة جهة اليمين و هي تعبث بطيات ثوب السيدة الممسكة بمظلتها الخضراء. الجو ليس ممطرا بل مشمسا يعكي الطابع الربيعي للوحة. بجانبها ابنها الذي لا يبدو عبه الكثير من الارتكاز. يبد كل من الضوء و الأرض و الغيوم و النسيم مؤتلفين يشكلا بهجة تدور حول شخص امرأة. المرأة.. كم تعجبني المرأة الذكية و كم يشدني اليها ذكتؤها. كونها متألقة بكتاب أفضل من ثوب يستغرق وقتا للتألق فيه. امرأة ذكية هي امرأة تعرف تماما ما تقول . امرأة ذكية تعلم تماما متى يجب أن تكون حاضرة و متى ينبغي أن تغيب. ستحادثك طوبلا عن مسرحيات "موليار" و أشعار "فيكتور ايجو" و تشاركك قطعا موسيقية من سمفونيات "بيتهوفن" و "موزارت". هي المرأة الأنثى و الأنثى الجوهر و الجوهر الثمين في حياتك. أبعد كل هذا مازلت تفكر في امرأة تملؤ العين دون القلب؟

***

ترى ما الجواب؟ ما الجواب لكل الأفكار المضطربة التي تعترينى دون موعد محدد؟ لكل الهلوسات التي تتملكني..

الفصام .. الفصام.. يعتبر من أكثر الأمراض النفسية المساء فهمها فكلما سمعنا عبارة "فصام" فكرنا في انفصام الشخصية بينما الأمر مجرد تشابه في الأسماء في اللغة العربية. يصيب هذا المرض حوالي 1% من الناس في العالم. يبدو مخيفا أن تعلم اصابتك بشيئ يسبب لك عدم التمييز بين الواقع و الخيال مع عزلة اجتماعية و حب الوحدة.. الوهام واضطراب الفكر والهلوسة و تشوش الأفكار . احساسك المستمر من أنك مطارد من قبل أشخاص يحاولون ايذاءك، بل الأسوأ أن تفقد ارتباطك بالواقع و أن يتملكك خليط كامل من الأفكار المتسارعة و المضطربة. مخيف أن تعيش في اضطراب و عدم انسجام داخلي. لكن أكثر ما يخيفني فيه هو الخوف الشديد. أن تخاف من مجرد أفكار في رأسك بل و الخوف من اللاشيئ. المشكلة كوننا لازلنا نخجل من لفضة مرض نفسي فلا نذهب في معضم الأحيان الى المعالجة الاّ و قد تفاقم الأمر بل و أحيانا ننظر الى الشخص المتعب قليلا على أنه مختل عقليا و مكانه مستشفى الأمراض العقلية. علم النفس ثقافة بأكملها يجب أن ترسَّخَ في كل الشعوب مثلها مثل الثقافة الجنسية و الثقافة العامة..

20/جوان/2014

يغيضني الأمر حين أفكر بالعمال اللذين يعملون في ظروف قاسية بسبب ظروف أقسى منهم تدفعهم للتضحية براحتهمم و التعب المضاعف المقابَل بأجر زهيد. لكن الأمر شريف و أقضل من الدناءة التي مررت بها من أجل تحصيل شبه الثروة تلك. ألهذا الحدّ يمكن أن يشكل المال سلطانا علينا لا راد لطغوته؟؟ أتندثر كل المبادئ و القيم أمام الجشع المادي!!! كيف يتخلى انسان عن كل ما امن به مدة دهر للحظة أو لحظات يتساوى فيها الخير و الشر في نفس الكفة !

ميزاني قد ثقل و ازداد وعيده. انه يتوعدني ليلا مؤرقا منامي، مطاردا ايّاي في مرا المظلومين اللذين لا يقدرون دفع تكاليف الدفاع عن مظلمتهم. أراه متوقدا حيّا في قالب كل مظلمة أو نواة كل حق مسكوت عنه. حتى أني صرت أتشاءم من قدوم الليل اذ يأتي محملا بشتى أنواع الوجع: حنين لماض ذهب و لن يعود، أحلام في طور التحقق، نفسية متعبة على وشك الانهيار...

"ما رأيك في بزات رجال الأعمال البيضاء؟ كنوع من التغيير؟" سألني صديقي ذان مرة.

رجال الأعمال يا صديقي ، كما نحن، بل ليس كلنا أو كلهم على وجه التعميم ، سجينون مثلما عبر عنه "سان اكزوبيري" في "الأمير الصغير" في صورة ذاك الرجل في الكوكب الذي يعد النجوم ثم يعيد عدها فقط من أجل الحصول لى مزيد من النقود سيحشوها في النهاية الأمر في خزانة مالئ دون الاستمتاع بالوقت الدي يمضي دون عودة. المال ليس نعمة و لا نقمة في حدّ ذاته.. الأمر يكمن في كيفية

نظرتنا اليه. لكن ما نعيشه اليوم من رفاهية مفرط فيها بسبب الانغماس في وسائل الاتصال و الاعلام بطريقة سلبت منا خصوصيتنا، ما يميز كل فرد عن غيره، اذ "عليّ" أن أعمل عملا طيبا يعلي مقامي أمام الناس لا ذاتي. كم تمنيت في صغري أن أصير شاعرا.. أنا اليوم أرتدي ما لا يريح جسدي أو يوافق ذوقي أو يلائم مزاجي! يكفي أنها تعجب الناس من حولي. أتكلم بما لا أريد قوله و أصمت بما تنفجر به أعماقي. أنا اليوم أقصى أمنياتي أن أنام و لو ليلة في راحة حتى الأقراص التي أعطاني اياها الطبيب لا تعالج مشكلتي برمتها.

و ماذا عن هذا الجسد الذي يرتديني؟ انه يشلني من حيث لا أدري. هذا الجسد الخارج عني المزخرف بالخدوش. لم يعد يخيفني شيئ. اذ لم يعد ختى يزحزحني الخوف حين أغرس قطعة الفضة تلك في جسدي و أدمجها داخله. لكن عارٍ أنا، عارٍ من أحلامي ، من شهوتي للحياة و المؤسف بحق أني أنا وحدي المسؤول عن هذا. لو حدث أنن قابلت نفسي القديمة قبل .. كم؟ عشر؟ سبع سنين؟ خمس؟ لقلت لها حتما " هذه الأشياء التي تشغل بالك ليست مهمة. انسها. انسها! أفرغ دماغك من كل شيئ سيئ و كفا سلبية و تناقضا. و ما أظن تناقضي ذاك الا صراعا ذاتيا لا ينتهي. أفرغ دكاغك من كل حدث سيئ. الله منحنا نحن البشر نعمة النسيان. لديك حاوية نفايات في حيكم؟ ارمها هناك كما تحترق النفايات السامة في اليابان لتوليد الطاقة عبر استخراج الغاز كوقود. احرقها كما تبخر الشمس المياه المالحة في البحر كي تصنع منها غيثا نافعا. لا تستفسر يا صديقي عن أسباب هذياني، اذ حكيم أنا خارج دائرة جنوني.

"أتصدق يا ولدي أني أحترق ألف مرة في اليوم لأنبعث من رمادي كطائر الفينيق"

ذاك أسوء ما قد تكون تفكر فيه أمي الان عن غيابي. أمي حفظك الله. فقط بعض الشيكات عليّ توقيعها في هذا المشروع سأنجزه مع سامي الذي ظهر من لا مكان و أعود اليك.

1/جانفي/2015

بداية سنة جديدة أقضيها بمفردي.

أخبرني صديق لي ذات مرة حين حين حدثته عن نشداني لشخص يفهمني و يهتم فيَّ : "كن أنت ذاك الشخص لنفسك. تمتع بالثقة بالنفس و حسن التدبير. لا تنتظر من أحد أن يجعلك كبيرا في عينه لأنك ان فقدته فقدت ذاتك معه."

مع الغد زارني مهدي بعد أن قضى ليلة البارحة هربا من الشرطة لأمور لم أفهم جلها. نظر اليّ طويلا قبل أن يهمس لي : "سمعتك مرة تحادثني أن مشكلتك ليست غربتك عن الناس بل تغرّبك عن نفسك. ليس صحيحا. نحن نتغير. تفاءل بالافض و امض في حياتك و كلك ثقة"

عمل مكثف و جلوس انفرادي مطول...

كانت تلك حالي طوال الأربع سنوات الماضية..

كنت قبل ذلك أظن أني سأصبح من أصحاب الملايين في شهر أو شهرينلكن تحصيلي ما يكفي لشراء شقة عادية و سيارة متواضعة استغرقني مدة طويلة . أنا الان أنظر الى كل ممتلكاتي بفخر و اعتزاز لكن شيئا فيَّ قد ظل منكسرا و كنت ؟أعوض ذلك بالشرب. كان رفاقي يشربون ليتسلوا بينما كنت أشرب لأنسى.

***

***

لكل منا صورة صار عليها و لم يكن في حسبانه أبدا أنه سيصيرها.

منزل و سيارة و بلاد أخرى و أ ناس لم تتعود حواسي عليهم بعد.

هل كنت أتوهم حياتي بهذا المنحنى سابقا؟ كان عليّ ايقاف هذه المهزلة قبل أن تستفحل الى هذا الحد.

رغبات متناقضة: طلب العزلة و التعطش الشديد للصحبة. هكذا نحن طبعنا البشر ، تتناقض في أحوالنا و أقوالنا بغرابة فأحيانا نعبر عما نريده بنقيضه: نطالب بان يفسح لنا اقرباءنا ابمجال لوقت انفرادي مطول بينما تتوسل أرواحنا سرّا و ملئ أرواحنا لمواساة طيبة، نصرح بأننا مللنا الموجودات كلها من حولنا بينما ذاك فقط تعبير عن استجدائنا لسبب جديد يعيد توازن الألوان الى اتزانها الطبيعي. هناك فرق بين رغبتك في البقاء وحيدا لفترة و بين استساغتك للوحدة على مضض.

أما الصورة التي وصلتها اليوم؟؟؟؟

صرت محاميا لا عن حقوق الناس الأبرياء بل مدافعا عن المجرمين. لا أدري ان مازال لديّ ضمير. و عيشي في الغربة لسنين متتالية دون اطفاء وجع الحنين الذي يغلغلني.

هذه الأدوية التي لا تفيد في الاخماد مصدر الوجع الحقيقي بل تساعد على هدوءه مؤقتا. كيف و متى وصل بي الحد الى الادمان. لين.. اه

لوتعلمين كم تثير فيَّ هذه الندوب فضفضات الماضي بقسوة. مراها و هي في نتوئها البارز، ملمسها، قبح النظر اليها. اه لو كان بمقدرتنا الغاء كلام أطلقناه في لحظة غضب بكبسة زر، أن نمحو ما نود نسيانه كما في هذه الأجهزة الالكترونية التي بت أحسدها . لكن على الصعيد الاخر ذكرياتنا و تجاربنا هي التي تصنع منا ما نحن عليه اليوم. كل حدث مررنا به سواء سلبيا أو ايجابا له خدوش على حاضرنا فلا توجد كبسة زر أو جرعة سحرية لتحسين الحياة بفجئيّة.

***

بعض كلمات أكتبها تحت وقعي التخدير فاعذريني على هيجان قلمي أثناء الكتابة، اعذريني على صراحتي المدقعة، على هيجان أفكاري، عن تكراري لنفس المعاني.. عن.. عن.. عن مخاطبتي لميت أقلقت راحته في نومه. لكن لا تعذروني على كوني أنا أو عن الطريق الذي سلكته. ففي النهاية لا يمكن لأي بشر مهما أحس نفسه ضئيلا أن يشكل عبئا ثقيلا على هذا العالم الذي يحملنا كلنا بكل عجائبنا و اختلافاتنا.

***

تشدني رياح الحنين كطفل فطيم يتشبث بنهد أمه اكراها عن تركه. لطالما شعرت باليتم حتى قبل توفي والدي، أبي الذي وترنا غيابه الغير مؤكد أكثر من حقيقة موته التي اقتنعنا بها بعد انقطاع الأمل في رجوعه. الموت يصبح جميلا حين نفكر فيه كَحلّ أبدي لتعبنا. و في الوقت ذاته، أن تتحول روح بشرية كانت حاضرة بيننا بكل

بساطة الى لا شيئ؟ و عن الأشخاص اللذين تتلبسهم رهافة الحس أتحدث. أولئك يشعرون بالأشيائ مضاعفة.. الأحزان، الكلمات.. و كم أجد سلواي في المشروب الأحمر، ذاك الطعم الذي ينساب في الحلق ليدوي في أمعائك. طعمه المر ينسيك لوهلة مرارة الحياة. أما أنت يا سلطانة القلب، صار المكان الوحيد الذي أفتش في عنك هو دفاتري و حبري و أقلامي. كل الأشياء تضمحل في غيابك. كيف أجد الطريق اليك كيف؟ و أنا الممزق في متاهات الاغتراب وحدي. و أنّى للوطن أن يهجر ساكنيه؟

28/أفريل/2015

صباح هذا اليوم الربيعي كان ممطرا جدا

و لبعض الناس المرهفين شاعرية خاصة تجاه المطر، كيف يبعث فيك نغمة السكون، و تلك الرائحة التي أحب استنشاقها ملئ رئتيّ..

أذكر أنه في يوم بارد كهذا قررت السفر بحيث شعرت أن أحلامي لا تتسع في قريتي الصغيرة. سافرت الى تونس أولا للدراسة ثم للعمل أعمالا بسيطة. كنا أنا و بعض البائعين المتجولين الاخرين لا نقضي دقيقة واحدة الا و نحن في تربص اذ لم تكن لدينا أوراق للعمل لكن كان ذلك يلاحنا الشريف ضد الفقر. كم مرة لممنا أدباشنا في سرعة خاطفة و رحنا نجري كي نختبئ من الشرطة. كان لنا "جواسيسنا" يخبروننا يخبروننا بدوم الشرطة كي نهرب من دفع الضريبة. نحن لا ندري من المخطئ فعلا هنا. الدولة التي تريد ؟أن تحمي أصحاب الحوانيت اللذين يدفعون كامل اداءاتهم التي تستثمر فيما بعد لصالح المواطن، أم نحن اللذين لم نجد عملا حلالا غير هذا كي نكتسب به؟ كل يوم تزداد هذه الهوة بيني و بين نفسي اتساعا و يتعمق هذا الفراغ في أعضائي و يتأصل.

لين.. كم أحتاجك اليوم أن ترتبي فوضى جنوني من جديد. متعبة هي الحياة يا صديقتي حين نعيشها بقلب رخو يتهشم سريعا كلما اصدم بواقع الحياة. كنتِ تستلذين قدوم الفرح خاصة حين يأتي بعد نكسات

ذبحت خاطرك. أما أنا فأخاف منه. من الفراغ الذي يتركنا نتخمص فيه بعد تجريدنا من الألم الذي اعتدناه لفترة.

كنت أعتقد سابقا أن أسوء شعور هو الحزن لكن أعلم اليوم أن أسوء شعور هو اللاشعور، أن تكون فارغا من الأحاسيس. أعلم أنه مضى عليك وقت طويل في سباتك لكن ألازلت تعتقدين أني استغللتك من أجل الحصول على التأشيرة لفرنسا؟ كم علينا أن نخسر كي نقتنع أنه علينا الافصاح عن مشاعرنا لمن نحب فقد تكون تلك هي مقابلتكما الأخيرة. صحيح فارق العمر بيننا الا أنك استوطنت حقا كياني . فبا عزيزتي كما قلت سابقا حين يحب رجل امرأة يتعشق كل تفاصيلها الدقيقة، ثنايا جسدها، بريق عينيها ، اختلاف نبرة صوتها حسب مزاجها أن يحبك رجل يانا بأكمله. كيانا متكاملا. لفد اقتحمت عذرية أحاسيسي و تركت بصمتك فيَّ. أولئك اللذين لا يحبون بسرعة حين يحبون يحبون بصدق. و كم غضبتِ حين نادتك صديقتك بال pédophile

محبة القصر و نبهتْكِ من استغلالي اياك من أجل التأشيرة . أنا الذي وحلّفت نفسي أن لا أقلقك حتى أتبين نفسي لكن فاتني الأوان.

تعلمين، رغم أن شبابنا يتغنى بالسفر خارجا اذ حقيقة لا أحد تعجبه الغربة. أخبرني بن عمي حديثا أنه منذ موت والي سافر جميع اخوتي الى تونس العاصمة للعمل في ظروف "أكثر رقيا". عنّي أنا بقيت محتارا قبل سفري لكن سرعان ما تحمست للقاء عالم المدينة

المغاي لهنا في قريتي الصحراوية الحميمية الاطلالة رغم طرقها الغير مجهزة و النقص في بعض الخدمات الا أني كنت و لا أزال أحبها.المشكلة أن لنا رأس مال جيد من استخراج الفسفاط الا أنه لا يستخدم بما يكفي لتحسين البنية التحتية في الجنوب بل لانجتز المشارريع في الساحل نظرا لقربها من محطة النقل الخارجية لكن قريتي بكا تلوياتها تظل أكثر مكان ابتسمت فيه.

جلست على مكتبي الفخم أعيد عد النقود للمرة العاشرة كما ليلة رحيلي فرؤية النقود طالما حركت قلبي و تحسسها حية بين يدي طالما قارب أن يروي غليلي انما كميَّة النقود لم تكف، لم تكف أبدا. أخذت حقيبتي و رتبن مظهري. ألقيت نظرة خاطفة على المكتب الواسع الفخم. هذا المكتب لي، هذه الأزهار أمامي الان .. لي هذا الاطار و هذا الكرسي..

سكت قليلا ثم ألقيت ظحكة شبه ساخرة. أذكر أول ما قدمت هنا كيف نظرت الى هذا المكان بعين واسعة كبيرة. لم يكن ذلك حتى في نطاق أحلامي رغم طموحي الكبير انما كان مرا ذلك المكان في حوزتي مجرد خيال يزور أوهامي في لحظات الهلوسة و الجنون و الان أنا صاحب المكان ، صاحب الكلمة.

نزلت طائرتي في مطار "النفيضة". اكتريت غرفة في فندق ريثما أتم أعمالي الادارية في ذلك المشروع و عادت ريما لعادتها القديمة.. لا يجيب سامي على اتصالاتي . الان هاتفه ليس مغلقا انما لا يجيب و بعد التذكي قليلا هاتفته بعد ساعة و نصف من رقم يجهله.

-الو..

-الو

-مرحبا.. ألديك مشكلة في الظغط على زر الهاتف؟

- اسف كنت مشغولا لم أسمعه.

....

اتصلت لأسألك.. ماذا فعلت في تلك الشيكات؟ -
-لا أعلم حقا ما أقول سوى أنك ساذج لدرجة مقرفة.
صعد الدم الى رأسي و رقبتي من حيث أتنفس و شعرت بهما ساخنين كقطعة حديد يتم معالجتها. لم أتكلم اذ أظاف هو في عصبيةذ-هل هناك شاخص عاقل يوق على بياض؟

!-يكفي

يكفي.. فهمت كل شيئ.. اسودت الحيطان من حولي و أصبت بنوبة هلع. اه منك يا نوبات الهلع، تلك اللعنة التي هي أشبه بمصارعة جميع مخاوفك مجتمعة، حين ينزل الثقل من حنبيك الى معدتك فتصاب بما يشبه احساس الغثيان و يتسارع النبض

في قلبك كقرع الطبول الافريقية و ترتعش كل خلية في جسدك و تنقطع أنفاسك فتحس لوهلة أنك على مشارف الموت و تتناوب أفكارك بين التجمد و التسارع فالخوف يشلك. نعم يشلك. له قدرة هائلة على تغيير مسار تفكيرك و توجيهك نحو ... و في لحظة التباس اكتئابي اتصلت بان عمي و قلن له "أخبروها أني مت".

***

هناك أحزان لا تحرقنا بل تستشفّ كل ما نملك من أكسجين و تحيل حتى اضطرام الأوهام الداعية للابتسام ظاهرة فيزيائية خارجة عن القانون. أتألم من بعدك يا غالية. حتى و أنا قريب بالمسافة منك لا زلت أجهل كيف سأواجهك. من فكرة أني تسببت لك في الخوف على طوال هذه المدة. من مجرد فكرة أني أعايش وافعا أرفض أن أواجهه. أتألم اذ كنت أرى نفسي ضعيفا مستكينا عن الذود. من المؤسف أن يقصف شبابك، أن تحرم العيش في أحلى فترات عمرك فقط بسبب اكتئاب. هي مسيرة منذ أعوام تزداد حدة لا تختلج فيها سوى بضع نبعات فرح فيومي، بالنسبة لأي شخص مصاب بالاكتئاب، ليس مجزأ بين يوم لك و يوم عليك بل أيام جافة و أخرى أقل جفافا مشابهة حد الخداع للارتواء. ذلك أن الشخص العطش سوف لن يشبع من نصف شربة ماء بينما العطش جدَّ التلاشي سوف "يرتوي" من ربع كأس ماء.

عدت الان الى منزلي الشعبي في قرية الردّف. عدت الى مرأى الزقاق الضيق و الاخر المائل للإتساع و الى المنازل العشوائية. عدت الى صخب الأطفال و لعبهم و الى اليوم لم أفهم سر تلك الابتسامة العفوية على وجوههم. لِمَ يضحكون؟ لِمَ هم سعداء؟ هل السعادة موجودة حقا؟ أنا قلما أضحك.

عدت الى لهيب قفصة الذي يبدأ مبكرا هربا من صقيع ايطاليا. عدت أتشبَّع بنور الشمس و ضيائها و أنا كلّي اشتياق لهذا الحَرّ الذي كنت أتذمر منه، صار الان دفئا، حنينا، ماضيا حلوا.. و انهلت على واحة الكريستال ، ذاك الاسم الغريب الذي ألقيته عليها، أقبِّل ترابها وأتجرَّع ماءها بكل لهفة كالعَطِشِ دوما الى المزيد.

ركبت مجددا في السيارة المأجورة بسائقها و طلبت منه أن يرجعني الى القرية و لا يزال يتملكني التردد.

***

تقدمت نحو باب منزلنا القديم، وإثر رعشة غريبة سَرَتْ في جسدي بدأت خطواتي الواثقة في البذلة الفخمة تتلاشى بينما تسارعت معها دقات قلبي.

خوف؟ مِنْ مَنْ؟ من ماذا؟؟

اخر مرة كنت هنا كنت في حالة لاوعي فضيعة من الشرب حيث كنت أقضي ليلتي الخمرية في العراء ثم أعود مع بوادر الفجر.. حيث يذهب المصلون الى مساجد الله حيث يذكر فيها اسمه و يعبدونه و كلهم ايمان.. الا أني اخر مرة كنت منفعلا جدا من مخاصمتي مع لين، شربت كثيرا و أعتذر من نفسي و من الله على ضعفي الذي يدفعني الى هذه الحلول رغم أن ذلك لا يعني أن الشارب هو شخص سيئ. و ضللت أعتكف في

غرفتي الى أن قدمت أختي اليَّ في سن العاشرة هي فضربتها. غضب عليَّ أهلي كثيرا و دعوني بعديم الرجولية. ثم اتصلتِ أنتِ بي في ذروة انفعالي، أخبرتِني أنك تريد مقابلتي. دار الحديث بما لا أريد سماعه وانتهى بما لا أريد تذكره.. أذكر فقط نوبة هلعي الأولى حين رأيتكِ تتبخرين أمامي.. لا أدري ما حدث بعدها.. لا.. ل.ا.. لا أدري.

أكاد أسمع خطوات وراء الباب، طرقة.
-شكووون؟
لم أقدر على الاجابة فتكرر الصوت "شكون؟" ابتسمت بعد أن عرفت صوت أختي. هي بخير اذن.
لم تنتظر اجابة بل فتحت الباب و بقيت متسمرة تنظر اليَّ
-انه أنا ألم تعرفيني؟
ظات على حالها تنظر الي بدهشة ثم فجأة صاحت موجهة رأسها إلى الداخل "حمزة حمزة خويا جا"
بعدها بثاني قدم همي محمود عمي شرف الدين. أقبلت زوجاتهما في حياء ملتفتين في السفساري، و زغرطت أختي.
-كبرت ماشاء الله
وسط كل هذا الجمع كانت حواسي كلها تبحث عن شبح واحد.
وين ماما عيْشَة؟ -
أخببروني أنها نائمة و لا يريدون ايقاضها.

كيف؟ لا يجوز.. أنا ابنها الذي لم تره منذ سنوات و عليهم ايقاضها. شيئ ما ليس على ما يرام.
-وين ماما عيشة؟ وين أمي؟
نظر الكل الى عمي الأكبر في انتظار أن يتكلم هو بالنيابة عنهم.
-ماما عيشة نائمة الان. سنوقضها بعد العصر.
قلت أنتظر الى العصر و قلبي لا يطمئنني بخير.
بعد أن جلسنا و قدمت لنا أختنا الشاي باللوز بسخاء كبير عرِفَ به أهل الجنوب من القديم ، اغتنمت فرصة الحديث معم أن أسأل عنها ، عن الدار، ماذا حلَّ في غيابي....
أخبروني أن بقية اخوتي تزوجوا و تركوها للعمل في العاصمة. كنتت أعلم أصلا ذاك الخبر.. و لما تغيرت الأحوال قسّموا الدار الكبيرة ، نفر منها جيراننا بعد أن أحسّوا بها ضربا من الجنون. كانت تدور في المنزل، تجلس قرب أيٍّ كان و تبدأ في الترديد "وْليدي البارح كلمني. قال لي أنه قادم و في حوزته الكثير من الوقت لنقضيه معا" و تخرج صورتك لتريها للاخرين و ترد " أنا ولدي كلمني البارح، اليوم قادم، قادم اليَّ، وعدني بالمجيئ.."
تذكرت حينها كيف كنت أخجل منها أمام رفاقي بأسمالها البالية و أجرحها بكلماتي و هي لم تنفك تنظر مجيئي. أشتاق لكسكها الذي قلّما يُطهى باللحم الاَّ بعد ذبح خروف و كيف كانت تدس قطعة لحمها في طبقي متظاهرة بأنها أكلت ما

يكفيها منه. و وسط الجمع المتحلق حولي تقدَّمَ نحوي يوسف الذي لم أتوقع أبدا أن أجده هنا و قال:
-لقد أُصيبت بالزهايمر.
أصيبت بالزهايمر؟
قد أقدّم الان أيَّ شيئ مقابل سماع كلمة "وينك يا وْليدي" أو تقبيل يدها المتشققة في سبيل إسعادنا، أو مقابل تذوق قطعة واحدة من طعام يديها المبارك.
-لكنها لا تزال تذكر في بعض الأحيان.
تلك الجملة أراحتني قليلا.
أخبروني أنه، حين اغتنموا كونها في وعيها، يوم حددوا لها موعد قدومي الذي تأخر بيوم واحد لم تعرف بأي وجه تستقبلني. جزء منها أراد أن يقابلني بالصدود عليّ أعرف قيمة عذابها لكن الجزء الأكبر فيها ظل يُلَيِّنُ قلبها و يدعوها لاستقبالي بأحلى الطلل. أخبروني أنها قامت ليلة سماع خبر مجيئي تنظف البيت كأنها شابة في العشرين. كانت تقول لهم "أتغيرت ملامح وجهه بعد كل تلك السنين؟ ماذا لو نظر اليَّ نظرة اشمئزاز كعادته القديمة؟ لا لا لن يفعل. أنا لن أتحمل تلك النظرات. هو يحبني. نعم يحبني.. كيف سأعرفه بعد أن غيَّرت فيه الغربة ملامح عدة و أخذ الزمن من نظري؟ الشامة على يده اليسرى و الجرح العميق الذي يعلو حاجبه. أنا لا أزال أحفظ كل تفاصيله."

قمت أضحك . قهقهت بشكل هستيري. يقولون أن الضحك عند الأزمة بكاء على شكل ابتسامة عميقة. ضحكت و ضحكت الى أن انفجرت باكيا. هرولت إلى غرفتها ، دققت الباب و دفعته بلطف..

لطالما كانت تنيمني على حجرها حتى و أنا في العشرين.

كانت تلك غرفتنا كلنا أنا و هي و أبي و اثنين من إخوتي معا.

دخلت عليها، أيقضتها.

بدأت بالصراخ و الصياح فتتدافع من في الدار و طلبوا منِّي الخروج اذ لم تتعرف عليَّ.

شعرت بحالة اختناق عضمى..

صار الفضاء لا ينفك يضيق و نَفَسي يزدرذ الهواء المتبقي بصعوبة.. تل هي نوبات الهلع التي أتناول الأدوية من أجلها و لا تبرحني في حالات الانفعال العضمى.

11/سبتمبر/2015
أتعلمون إحساس المنفى؟ أن لا تجد إلى أي شخص تنتمي؟ أن تتوسل معجزة تنتشلك من هذا الفراغ الهائل الذي نشعر به و يحيطك..
اليوم توفيت أمي و شعرت معها بموت داخلي. أعلم أني لست وحدي في هذا لكن مهما كانت الأحبة تواسي فلن تتلمس نفي الإحساس. شعرت بأفكاري المتسارعة تذبح صدري و تقتلع حفنة السعادة المتبقية داخلي من أصولها كي تتجذر فيَّ. لكن أن يختارك الموت من بين كل الوجوه المطموسة الأخرى؟
اليوم توفيت أمي
و أحسست معها أن لم يعد هناك معنى للحياة
أهدي نصف عمري فقط لسماع كلمة "ولدي"
أهدي نصف عمري لتقبيل يدها الطاهرة

ألم تحس يوما أنك مجرد عبئ ثقيل على من حولك؟ أنك مصدر إزعاج و أنَّ رحيلك لن يشكل أدنى فرق؟ الأرض ستظل تدور و الشمس تيتسم للغرباء و الأراضي المنفية المعزولة في توسل لمن يعَمِّرها و ينتفع بخيراتها. لكن ألوم على أمي أيضا على ما عاشته. أذكر كيف كانت تحسد بنات عصرنا على التعليم الذي لم تحض به هي في صرها لذا كانت تشجعني دوما على طلب العلم. ألومها أنها كانت في حالة استسلام، أن رهنت حياتها في قبضة المجتمع: أبي إخوتي..

أنا. أنا أريد أن يكون لي وجودي الخاص المنفرد، أن لا أكون مجرد بقعة على وجه الأرض.
و أولئك الأشخاص مرهفوا الحس لديهم قدرة خاصة على اكتشاف مواضع الألم لدى الاخرين. ربما هذا ما كسبته من حساسيتي. لأننا فقط متشابهون.
ذاك الخفوت المفاجئ لحدَّة الصوت حين يتكلمون عن شيئ يعنيهم، الشرود المستمر، أن "تمسكهم" و هم محدقون في اللاشيئ، أعينهم في عناق للعدم.. الإحابات المختصرة المقتضبة من نوع "أنا فقط مرهق.. أحتاج فقط لقسط من الراحة".

تعلمت أن السعادة في أبسط الأشياء صدقوني: في جملة "أنا راضيةْ عْليكْ دنيا وْ اخرة" ، في سؤال "كيف حالك" حين يكون نابعا من قلب شخص قريب منك، في فطور بسيط مطهو بيد الوالدة، في قطعة شطيرة تقتسمها مع صديق على شرفة الحديث الممتع.

السعادة الزائفة في امتلاكك لمنزل على كبره لا يجلب لك بهجة مشاركة بيتك المتواضع .. أو في المصاحبة للناس و التي تكون خالية جوفاء أو حتي في العبثية التي نعيشها دون وعي منا.

أجهزة التواصل الإلام مع مزاياها المتعددة للأسف بجانبها السيِّئ شوهن مفاهيمنا عن كل شيئ، عن مقاييس الجمال الرفاهية الحب..
كم سيكون جميلا أن لا نتقيَّدَ بما يقوله الغرباء لنا، عن كيف نتصرف كيف نعيش بل حتى كيف نفكر.

نظرتنا للكثير من المفاهيم الحياتية تحتاج إلى صيانة. الفقر ليس عيبا و المجون المفرط فيه ليس تحررا و لا ثقافة و التمسك بالخصوصية مع الانفتاح على الغيرية لا يعد تزمتا و تعصبا. أما أهمها فعدم حصر الكون كلهفي جانب مادي، أن لا نرى بنصف عين، أن نبحث عما هو حلو في أبسط الأشياء التي تحيط بنا، أن نخلق من اللاشيئ مصدرا للسعادة، أن نتوقف عن تعليق حياتنا بل و جانب كبير منها في يد شخص ما.
تَعَلَّمْ أن تحب نفسك، أت تهتم بنفسك بل أن تعامل نفسك كأعز صديق لك. فإن لم تفعل فستبحث عن ذاك التعويض في غيرك مما سيجعلك ترهن جزء كبيرا من سعادتك في هذا الاخر.
فنحن بائسون في البحث عمن يحبنا لأننا لا نستطيع أن نحب أنفسنا.
***

سامحيني يا غالية

لِ.. لِ.. لِعديد الأشياء التي قمت و لم أقم بها.

جعلت أبكي على القبر الهادئ مقبلا التراب الذي لا يزال رطبا برائحة المسك و العنبر و الزعتر الجبلي. للفبور رائحة قوية من الذكريات. أمسك بيديَّ حفنة التراب النديَّة كأنها اخر ما يربطني إلى هذا الواقع. كان المكان خاليا أو هكذا بدى لي، تجمدت حواسي كلها فموت بعص الأحبة موجع لدرجة أن التنازلات الأخرى تقف لتخاطبك بأنها لا تستحق مقدار الحزن المنفق عليهم.

جعلت أتأمَّل شريط حياتي الذي مر في الأوهام الزائفة : نقود، جشع.. ثم ماذا؟ أنفقد أنفسنا داخل العدم و المجهول؟ كيف يكون أشد ما نحبه و نجله هو أكثر ما يؤذينا؟ فأصناف الفقد عديدة كوفاة الأحبة الذي يهز كياننا بأجمعه، يقينك بأنك لن تراه مجددا إلا في العالم العلوي، كونك تشتم رائحته في كل مكان كنت تجتمع به معه.. تصبح للحيطان رائحة ، لأوراق الشجر رائحة، للطعام المفظل لديهم رائحة أيضا بالطبع لكن طعم مغاير

للمألوف. هكذا تجتمع كل أشيائه التي تذكرك به لتحيط بك من كل جانب. الموت هو أمرّ أنواع الفراق اذ تبقى صورتهم المثالية مثبتتة عندنا لا يشوهها الزمن كما هي مع بقية ذكرياتنا معم . ألم تلاحظوا أبدا أن الميت يحلو في أعيننا أكثر مما كنا نقدره في حياته؟ أما أن ينقطع عنك شخص في حياته فلذلك قابلية أكثر على النسيان. كبرنا يا أمي. كبرنا و صرنا نبحث عن أتفه الأسباب كي تنفجر ماقينا بالبكاء.

لكن ماذا عن فقدك لذاتك؟ أن تنظر إلى انعكاس روحك في المراة فلا تعرف من هو ذاك الشخص أمامك.

شعرت بأعضائي كلها تتاكل و برعشة برد سرت من دقة عنيفة في صدري إلى أخمص قدمي.

مماذا أفعل في هذا الزمان المطلق؟ هذا الفضاء باتساعه الهائل لا ينفك يضيق و نَفَسي يزدرد الهواء المتبقي بصعوبة.

***

كثير منا يكتب عما ينقصه، عن الذي يحسه.. كثير منا يكتي عن أشياء كالحب و الروايات الكوميدية و البوليسية و.... كثير ما يكتب للفئة العادية من الناس لكن ماذا لو كتبنا للفئة التي ليست بخير؟ تلك التي تبحث عن ذاتها في الناس فالأشعار فالكتب فلا تجد صداها إلا نادرا. ماذا لو؟

إلى أولئك في خضم الغربة أكتب،

إلى أولئك المتوحدين داخل غلاف مزيف من المجتمع أكتب،
إلى اللذين لم تطأ أقدامهم جزيرة الأحلام.. بعد،
إلى تلك الأرواح التي ستنفجر فيما بعد بشتى أنواع الإبداع.. أكتب.
ماذا لو؟